محمد سليمان عبد المالك

أُخوَّة الدم

رواية

أُخوَّة الدم

محمد سليمان عبد المالك

أُخوَّة الدم

رواية

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © محمد سليمان عبد المالك ٢٠١٤
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

عبد المالك، محمد سليمان.
أخوة الدم: رواية / محمد سليمان عبد المالك - القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤
٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467019
- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أسامة علام

إهداء

إلى أبنائي: أحمد، تاليا، علي.
لعلكم تعرفون يومًا كم أحبكم.

بداية

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الإسراء، الآية: ٨٥)

توطئة

الاسم: نسرين الجبالي.. ابنة الدكتور فاروق الجبالي، جراح المخ والأعصاب الشهير.

السن: ٢١ عامًا.

المهنة: طالبة في كلية الإعلام، قسم صحافة.. وصحفية تحت التمرين في جريدة «الأربعاء» الأسبوعية.

الحالة الاجتماعية: مخطوبة للرائد هشام القاضي، بالمباحث الجنائية.

الهوايات: البحث عن المتاعب، ودس أنفي فيما لا يعنيني ومضايقة خطيبي الغيور جدًّا.

صفات خاصة: التعلق الزائد بالأب، وإثارة المشاكل، والجنون!

١

وحدي كالمعتاد.

جالسة في الشرفة أراقب الشمس المائلة عند حافة الغروب البعيدة، ليس معي إلا قدح النسكافيه الخالد، وألبوم الصور القديمة، ونبرات «عبد الحليم» الحزينة الحالمة:

في يوم.. في شهر.. في سنة تِـهـدا الـجِـراح وتنـام

يحلو لي من حين لحين أن أتسلى بالتقليب في الذكريات التي لم أعشها، أو التي لا أذكرها.. ولا أجد لذلك وسيلة أفضل من الصور الرمادية القابعة في ثنايا الألبوم العتيق، ذي الغلاف الأخضر الصلب.

صورتي في يوم مولدي الشقي، كائن ضئيل غض وأحمق، لا يدري من أمر نفسه شيئًا، ولا يدرك ما تخبِّئ له الدنيا في الغد.. لقد جاء ليملأ الكون صراخًا وحركة، هذه رسالته في الحياة إن كان يدرك وقتها شيئًا كهذا.

وعُمر جَرحي أنا أطول مِن الأيام

صور أبي القديمة، وسيم هذا الرجل منذ نعومة أظفاره.. طفل أنيق ونظيف ينسدل شعره ناعمًا فوق مفرقه، ثم شاب يشع بالحيوية والمرح بين أقرانه لابسي المعاطف البيضاء في أروقة «قصر العيني»، حيث تبرز فورمة «البوجودي» موضة الستينيات الشهيرة بوضوح على الهامات الممشوقة، ثم طبيب يبتسم في وقفته بجوار سرير أحد المرضى بوقار تسبغه المهنة الجليلة على كل مَن يمتهنها، ثم الصعود المستمر بخطى ثابتة نحو شهادة «الدكتوراه» التي خلدت الكاميرا لحظة تسلمه إياها بقسمات يملؤها الفرح الواثق، ثم رحلاته حول العالم في مؤتمراته الطبية العصية على الحصر؛ مع تطور الموضة في السبعينيات إلى السوالف الطويلة والعريضة جدًّا، وياقات القمصان المدببة، وسراويل «الشارلستون» الضيقة من أعلى والواسعة من أسفل (يا للفظاعة!)، ثم انخراطه في سلك العمل وصوره مع زملائه وزميلاته و...

وداع يـا دُنيـا الـهَنـا وداع يا حُب يا أحلام

وأمي.. صورة زفافها لأبي، وصور رحلة شهر العسل التي قضياها في الإسكندرية، وصورتها بعد أن ولدتني، تحملني ذراعها وهي تبتسم بغبطة في حين لا أكف أنا عن الصراخ، ثم...

لا شيء.

لقد انقطعت بعدها أسباب اتصالها بهذه الحياة.

جاءت بي وذهبت.. هكذا بكل بساطة!

لماذا كلما تذكرت هذه الحقيقة، أجد الدموع تحتشد في نهايات قنواتي الدمعية وأوشك على الإجهاش بالبكاء؟!

لماذا بعد كل هذه السنين؟!

بل، لماذا وكل ما يربطني بهذه الإنسانة هو هذه الصور الرمادية المتوسطة الجودة، إذ لست أذكر قَطُّ أنني رأيت وجهها خارجها؟!

هل هي مشاعر الحرمان من حنانها وعطفها ووجودها الضروري في حياتي برغم كل السنين التي تكيفت فيها مع الوضع برغم أنفي؟!

هل هو الشعور الفطري بأنها أمي التي حرمها الموت مني كما حرمني منها برغم كل شيء؟!

لن أعرف أبدًا، وسأظل كلما مرت ذكرى «سعاد» بي أوشك على الإجهاش بالبكاء.

نعم.. كان هذا هو اسمها.. سعاد خورشيد.

حبيبي شايفك وانت بعيد وأنا ف طريق السُّهد وحيد

كل ما أعرفه عنها ـ عن طريق أبي والدادة رئيفة رحمها الله ـ أنها كانت من جذور أرستقراطية إقطاعية قديمة، كانت زميلة لأبي في الحقل الطبي ـ كصيدلانية ـ وهكذا نشأ بينهما التعارف تحت سقف إحدى المستشفيات.. ظروف زواجهما أجهلها، لكنه تم بدليل وجودي! كذلك أجهل كل شيء عن الظروف التي واكبت مفارقتها للحياة.. كنت حتى الأمس تلك الطفلة الصغيرة التي لا يجب أن تفشي أمامها أسرار الكبار، واستمر الحال حتى الآن بنظرية القصور الذاتي، فلم أسأل ولم يُرد أحد بالتالي أن يصدع رأسه بما لا طائل من ورائه.

لكني أحيانًا أندهش: لماذا لا أعرف أحدًا من ناحيتها.. جد أو خال أو قريب بعيد أو حتى صديقة مقربة؟!

وأكف عن الاندهاش قبل أن يشرع ذهني المتحمس في وضع سيناريوهات، لن تجلب لي إلا المزيد من التساؤلات التي لن يجيب عنها أحد.

لأتمعن في وجه أمي أكثر.. لم أحمل الكثير من ملامحها، إذ تولى أبي مشكورًا توريثي جيناته السائدة، لكن هناك ما يسمونه «الدم الواحد».. ذلك الرابط الخفي الذي يجعلك تقول واثقًا إن «فلانًا» هو ابن «فلان» دون أن تكون هناك أدنى علاقة تشابه في ملامحهما!

نعم.. هي أمي.. لم يجداني إذن عند عتبة الشقة ليدعيا بعدها أنني ابنتهما!

وكُل خطوة ف بُعدك ليل وشوق وذكرى وجَرح جديد

لأكتف بهذا القدر من الذكريات اليوم.. ورائي كم رهيب من الدروس التي تنتظر مَن يذاكرها.. أسابيع قليلة وتبدأ امتحانات السنة النهائية الحاسمة.. سأغلق الألبوم وأعد فنجانًا آخر من النسكافيه (لزوم سهر الليالي في طلب العلا) وأصحب حليم معي إلى غرفتي.. سأبدأ اليوم في مذاكرة مادة «الـ.....

معذرة.. جرس الهاتف يرن.

لقد نسيت رفع السماعة كما أفعل دومًا قبل بدء الاستذكار.. جل مَن لا يسهو.

أستطيع بالطبع أن أتجاهل الرنين حتى ينقطع، لكن هذه الرنة الطويلة المتصلة غير قابلة للتجاهل، فهي تعني أن المكالمة واردة من خارج القاهرة، وربما من خارج مصر كلها.

أمري لله.. لن تصنع بضع دقائق ـ وربما أقل ـ من التأخير فارقًا!

ـ ألو.

ـ نسرين.. كيف حالك أيتها المشاكسة؟

ـ عمي ممدوح!

صحت بها في غبطة، إنه عمي ـ شقيق والدي الأصغر ـ المقيم في الإسماعيلية.

ـ ما أخبارك؟! وكيف حال القاهرة العامرة؟

ـ بخير أنا وهي.. حدثني أنت عن أخبار المانجو والفراولة والسمك الشبار.

ضحك عمي ثم قال:

ـ تنتظرك بلهفة الصب المشتاق.. ألا تنوين المجيء قريبًا؟

هززت كتفي بخيبة أمل ـ كأنه سيراني ـ وأجبته:

ـ أتمنى ولكن.. الامتحانات اقتربت كما تعلم.

ـ كان الله في عونك.. وكيف حال أخي العزيز؟

أجبته بخيبة أمل أشد:

ـ في المستشفى.

ـ أما زال في دوامة العمل كعهده؟

ـ ومن يمكنه أن ينتزعه منها؟!

ـ صدقت.. بعض الناس قد ولدوا ليعملوا فقط!

يروي لي أبي دومًا عن كسل شقيقه الأصغر وانكماش طموحه، «درعمي» هو، عاش حياته بالطول والعرض حتى وجد عملًا في الإسماعيلية فاستقر وتزوج وأنجب وطلق زوجته هناك.

ـ يمكنك أن تتصل به على هاتف المستشفى.. ستجده هناك حتمًا إن كنت تريده في شيء مهم.

بينما يروي هو عن أبي أنه كان راهبًا في محراب الطب منذ صغره، يعشق مهنته حتى التداعي، يداوي كل أفراد العائلة منذ كان في السنة الثالثة، وهو ما جعله الابن المفضَّل لدى أبويه ـ جدي وجدتي ـ عنه وعن عمي الثالث؛ الذي هاجر إلى أمريكا وأصبح أمريكيًّا منذ سنين طويلة حتى إنني نسيته!

ـ في الحقيقة أنا لا أريده هو.. أريدك أنت يا نسرين.

غريبة.. ليس هناك أي شيء يمكن أن يريدني عمي بشأنه!

ـ مُرني يا عماه.

ـ في الحقيقة.. أريد أن أطلب منك خدمة صغيرة.

وهو لم يطلب مني أي شيء من قبل أيضا!

ـ اطلب ما بدا لك.

هكذا تتصرف الفتيات المهذبات!

ـ حمادة!

سألته مندهشة:

ـ ماذا عنه؟!

قال:

ـ لديَّ عدة مشاوير مهمة في القاهرة غدًا.. أنت تعلمين كم سيكون صعبًا اصطحاب طفل لم يكد يبلغ الخامسة من عمره بين المكاتب والمصالح الحكومية طوال النهار، لذا كنت... حمادة لمن لم يستنتج بعد هو الابن الوحيد لعمي من زوجته السابقة

التي تزوجت غيره وسافرت مع زوجها إلى.. إحم.. عفوًا.. إنها أسرار عائلية.. يكفي أن أقول إنهما قد انفصلا منذ سنوات أربع تقريبًا!

ـ كنت سأطلب منك أن تعتني به حتى المساء.

قالها وقد فاح الحرج من صوته لتصلني رائحته عبر السماعة، ولم أملك أنا إلا أن أقول:

ـ على الرحب والسعة بالطبع.

شممت المزيد من الحرج في نبراته إذ قال:

ـ إن كان هذا سيعطلك عن المحاضرات أو المذاكرة فـ...

أسرعت أقول بحماسة لم أدرِ مصدرها:

ـ كلا.. كلا.. غدًا لا توجد محاضرات في الكلية.. وبالنسبة إلى المذاكرة فلا تقلق.. أستطيع تدبر أمري جيدًا في وجود حمادة!

لم أقل الحقيقة، جدول الغد زاخر بما لذ وطاب من المحاضرات والسكاشن، لكني لم أتعود رفض خدمة طلبها مني أحد مهما كانت مسببات الرفض قوية.. بالإضافة إلى أني تصورت أن المذاكرة في وجود طفل هادئ مثل حمادة لهي أمر يسير جدًّا.

ـ أشكرك بشدة يا ابنة أخي البارة.

ـ لا شكر على واجب يا عمي العزيز.

أنا أعرف هؤلاء الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم صغارًا لسبب أو لآخر، واسألوني أنا.

ـ خذي.. إنه يريد أن يحادثك.

إنهم حساسون جدًّا.. منطوون جدًّا.. هادئون جدًّا.. وحيدون جدًّا جدًّا...

وسلم عمي ممدوح السماعة له، وسمعته من بعيد يلقنه:

ـ قل لها: كيف حالك يا تانت نسرين.

مثلي أنا.. آه أنا.. وحيدة

وأتاني صوته عبر السماعة:

ـ كيف حالك يا تانت نسرين؟

ـ بخير يا حمادة.. كيف حالك أنت؟

واحتشدت الدموع في نهايات قنواتي الدمعية، وكدت أجهش بالبكاء!

٢

ـ حمادة.. أنت يا ولد!

صاح بها عمي ممدوح في ابنه الذي اندفع كالصاروخ إلى الداخل فور أن انفتح باب شقتنا أمامه، حتى إنني عجزت عن رؤيته!

وقفت مذهولة لوهلة أمام عمي، وقد زاد الاستيقاظ المبكر بعد ليلة من السهر الطويل مظهري ذهولًا، كانت الثامنة والنصف صباحًا، ولم أكن قد نمت عندما ارتفع أذان الفجر من المسجد المجاور.

ولكن.. كل شيء يهون فداء للواجب، حتى الاستيقاظ المبكر!

تلاشى ذهولي بسرعة فحاولت الابتسام؛ كنت كمصَّاص دماء يبتسم، لكن حرج عمي لم يتلاشَ وهو يمد يده اليمنى مصافحًا إياي، بينما اليسرى تحمل حقيبة صغيرة.

قال في شيء من الارتباك:

ـ نسرين.. كيف حالك؟! عذرًا، فحمادة شقي بعض الشيء!

ـ لا تهتم، كيف حالك أنت يا عمي؟! إنه وقت طويل حقًّا.

لم يتغير عمي كثيرًا، كان في المرَّة الأخيرة التي رأيته فيها أكثر

امتلاءً، ولم يكن في رأسه شعيرات بيضاء كهذه، لكنها سنون لا أذكر عددها بالضبط.. بالتأكيد تزيد عن الخمس إذ هي المرَّة الأولى التي أراه فيها بعد مولد حمادة؛ السيد المبجل الذي لم أتشرف برؤيته حتى اللحظة.

كدت أدعوه للدخول، وبدأت في التنحي عن موقفي أمام الباب لأقول: تفضل، عندما ارتفع صوت شيء زجاجي يتحطم من جهة المطبخ!

فزعت وندت عني شهقة، بينما اندفع عمي داخلًا على الفور وقد استنتج كنه المصيبة، أو على الأقل المتسبب فيها، وتجاوزت فزعي لأندفع خلفه تاركة الباب مفتوحًا في وجه أي قط ضال أو متسلل فضولي!

كان حمادة في أول لقاء لي معه يقف باسمًا في بلاهة أمام زجاج الكوب المكسور الذي كان يستكين بوداعة بجوار الحوض، وسط صف من الأكواب التي غسلتها بالأمس وتركتها ها هنا لتجف، وفي يده قرطاس من الآيس كريم نجح في أن يلوث به أغلب أثاث المطبخ، ناهيك عن وجهه وملابسه.

احمر وجه عمي ممدوح خجلًا وغضبًا، وعند دخولي رأيته يقترب من حمادة في بطء كأنه سيقتله، لكنه لم يفعل أكثر من أن رفع يده الصغيرة الحرة وانهال على ظهرها بالضرب الخفيف الهين مع سيل من التوبيخ الأبوي الصارم:

ـ هكذا يا حمادة؟! أهذه تصرفات الصبية المؤدبين التي اتفقنا عليها؟!

وكان حمادة يبتسم.

ومع كل ضربة وعبارة يتلقاها كانت ابتسامته تتسع، حتى تحولت في النهاية إلى ضحكة منتشية، كأنه يمارس لعبة مسلية.

وعرفت على أي جحيم طفولي مقبلة أنا!

ـ اتركه يا عمي، لم يكن كوبًا من الكريستال الثمين على أية حال.

تركه عمي ـ كأنه كان ينتظر قولي هذا ـ وقال:

ـ إنها مسألة مبدأ، عليه أن يتصرف بقليل من اللياقة.

قلت مهونة وأنا أبتسم، متحاشية النظر إلى الكوب المكسور حتى لا يظهر الأسى على وجهي:

ـ إنه ما زال طفلًا، لا تظلمه وتطلق عليه أحكام الكبار.

ـ مَن هذه؟!

قالها حمادة وهو يشير نحوي بإصبعه الغارقة في الآيس كريم، بأسلوب جعله أشبه بأطفال الشوارع، فالتفت إليه عمي وقال مربتًا على رأسه حتى يصمت:

ـ هذه تانت نسرين، ابنة عمك التي حادثتها في الهاتف بالأمس.

اقتربت منه، وجثوت على ركبتي، وقلت محدقة في وجهه الأسمر وشعره الأكرت وملامحه التي ورثها بالتأكيد من جهة أمه:

ـ كيف حالك يا حمادة؟ اقترب مني حتى أقبِّلك.

واندفع نحوي ضاحكًا، فاتسخت ملابسي بالآيس كريم الذي انحشر في المسافة الضيقة بيني وبينه، وقبَّلته وقد اعتراني اشمئزاز بلا حدود.

بداية رائعة ليوم حافل!

ـ كان من المفترض أن أتركه لدى الجيران، إنني أفعل ذلك يوميًّا عندما أذهب إلى العمل في الصباح، لكنهم بكل أسف مسافرون لظروف ما.

قالها عمي، وكنا نتجه نحو باب الشقة بعد أن تمت السيطرة جزئيًّا على الموقف.

نظفت ما تيسر من ملابسي والمطبخ، وبدَّل حمادة ملابسه التي أحضرها عمي في الحقيبة؛ كأنه كان يتوقع الغدر من هذا الطفل الهادئ جدًّا (تبًّا لسذاجتي!)، وشرب عمي كوبًا من الشاي في الصالون مطوقًا بذراعيه حمادة في قوة، بينما الأخير يحاول التملص جاهدًا، ليستمتع بممارسة شقاوته التخريبية الواضحة، واكتشفت وقتها أنني تركت الباب مفتوحًا (خطأ لا يجب أن أكرره بالذات وأنا وحدي).

لا بد أن الرجل كان يحاول تبرير فعلته، ولا أقول جريمته.

ـ لا مشكلة يا عمي، أليس حمادة أخًا أصغر لي؟

المشكلة أن التهذيب يجبرنا دائمًا على إظهار عكس ما نبطن.

ـ بوركت يا ابنتي، لكنك يجب أن تأخذي الحذر.

وتوقف عند عتبة الباب، ثم استدار ليواجهني متابعًا:

ـ إنه شقي للغاية، منذ تركته أمه وأنا أعاني معه الأمرَّين.

شعرت نحوه بإشفاق شديد عندما نطق الجزء الأخير من العبارة في ألم، كأن السنين لم تداوِ جرحه بعد، وازداد شعوري أضعافًا عندما تنهد بحرارة، ثم نفض رأسه كأنه يطرد منه أشباح الذكرى البعيدة.

لكني طبعًا لم أظهر أيًّا من مشاعري هذه حتى لا أزيد من آلامه، وقلت مبتسمة:

ـ هكذا الأطفال دائمًا يا عمي، خصوصًا من تبتعد عنهم أمهاتهم في هذه...

وانتبهت إلى أنني أزيد من آلامه بالفعل عن طريق غبائي المعهود!

ـ السن!

لاح على شفتيه شبح ابتسامة مُرة، سرعان ما تلاشى وهو يقول:

ـ ومتى سيعود الدكتور؟

أبي، كنت قد أخبرته في جلستنا بالصالون أنه بات طوال ليلة الأمس في المستشفى، كأنني زوجة تشكو لأقربائها إهمال زوجها المتعمد.

ـ لا مواعيد له، من الممكن ألا يعود إلا في الغد، هذا إن تذكر!

قلتها في أسى وأنا أنظر إلى قدمي. لو يدرك هذا الرجل كم أفتقده، لو!

شعرت براحة عمي وهي تمتد لتربت على كتفي، وبقوله في عاطفة تشبه ما شعرت به نحوه منذ لحظات:

ـ كان الله في عونه، أخبرتك أنه يعشق عمله حتى الثمالة، وما لنا في هذا حيلة.

أردت التفوه بعبارة حسرة، لكنه سبقني مردفًا ومغيرًا دفة الحديث:

ـ لكن، أتعلمين شيئًا...

ورفع براحته ذقني لأراه يحدق في عيني بحنان أُبوي أفتقده، متابعًا:

ـ لقد أصبحت أكثر جمالًا من قبل، بكثير جدًّا!

ابتسمت في خفر، بل وتضرج وجهي بحمرة وردية، وهمست عائدة للنظر إلى الأرض:

ـ شكرًا.

ـ حمادة الملعون أنساني أن أسلم عليك مثل كل مرَّة، هل تذكرين؟

قالها فاردًا ذراعيه، ولما كنت أذكر فقد ارتميت في حضنه، كما كنت أفعل بمجرد رؤيتي له في العهد البائد.

عندها وقع حادث قدري بسيط: لقد ظهر الرائد هشام القاضي ـ خطيبي الغيور جدًّا ـ مرتديًا زيه الرسمي الأبيض وقبعته ذات النسر عند نهاية الدرج.

وللعلم فقط: هشام يعلم جيدًا أن لي عمًّا اسمه ممدوح الجبالي، لكنه لم يره من قبل قَطُّ، وأظنكم تفهمون جيدًا ما أعنيه.

تركت حضن عمي، ورآني الأخير أنظر جهة هشام المتسمر بلا حراك، الناقل بصره المشتعل بيني وبينه، وكان لا بد من حل لهذا الموقف السخيف على الفور، حتى لا يتطور إلى مهزلة.. ولحُسن الحظ، الحل بسيط جدًّا:

ـ صباح الخير يا هشام.

قلتها في اعتداد، ثم أردفت على الفور مشيرة إلى عمي:

ـ هذا عمي ممدوح الجبالي الذي حدثتك عنه مرارًا.

لم تتغير ملامح هشام، واستمر ينظر إلى عمي نظرات متسائلة (كأني أكذب!)، بينما تهللت أسارير عمي ومد يده إليه هاتفًا في حبور:

ـ أنت هشام بك القاضي، خطيب نسرين، أليس كذلك؟

أجبت أنا:

ـ بلى.

وصافح هشام الرجل الودود محاولًا أن يذيب الثلوج المتراكمة فوق وجهه، ثم قال خالعًا قبعته:

ـ تشرفت بلقياك يا سيدي.

محاولة بائسة، لكنها أفضل من لا شيء قطعًا.

وبعد عبارات مجاملة كثيرة من التي يجيدها عمي إلى حد الاحتراف، استأذن قائلًا:

ـ معذرة، كان بودي أن أجلس معكِ فترة أطول، لكنها المشاغل اللعينة التي لا تنتهي.

ـ كان الله في عونك يا سيدي.

قالها هشام وقد بدأ في تجاوز الصدمة، حتى إنه أردف في شهامة:

ـ سيارتي معي بالأسفل، دعني أوصلك لأي مكان تريده.

رفض عمي بشدة، وبعد فاصل آخر من عبارات العرض والرفض أنهى عمي حديثه وهو يهبط الدرجات بالفعل:

ـ لا تقلق عليَّ، أنا أعرف طريقي جيدًا.. إلى اللقاء.

واختفى...

طال الصمت بيننا، هشام عادت الثلوج تتراكم فوق وجهه الطفولي ذي الشارب، وأنا احتضنت جانب الباب المفتوح، لأقول في النهاية حتى لا يمتد بنا الصمت إلى نهاية العالم:

ـ والآن؟

أجابني بسؤال:

ـ ماذا؟

قلت متظاهرة بالذكاء:

ـ لا بد أن لديك ما يقال، خصوصًا مع مجيئك في هذا الوقت المبكر دون موعد مسبق ودون حتى اتصال هاتفي.

ـ بالفعل، إن هاتف المنزل معطل، والمحمول ليس به رصيد، وفكرت أن هناك ما يستحق أن تعرفيه بلا تأخير!

سألته أنا هذه المرَّة:

ـ ماذا؟!

هز كتفيه وقال ببساطة:

ـ كنت قادم لأبلغك بسفري.

ارتفع حاجباي بحركة تلقائية، وسألته مجددًا:

ـ حقًا؟! إلى أين؟

أجاب واضعًا قبعته فوق رأسه بدون سبب، ربما حركة تلقائية أيضًا:

ـ إلى المنيا.. مأمورية عمل تستغرق ثلاثة أيام.

ـ ومتى ستسافر؟

ـ الآن، فكرت أن أراك قبل الرحيل لأني...

وابتلع ريقه، ثم استجمع مشاعره ليقولها ناظرًا إليَّ بكل الحب:

ـ سأفتقدك!

كم يكون وديعًا ورومانسيًّا حين ينظر إليَّ هذه النظرات!

ـ وأنا أيضًا.

وقرأ في عيني ما هو أكثر منها، قبل أن أردف:

ـ اهتم بنفسك جيدًا.

ابتسم قائلًا وهو يتناول يدي في يده:

ـ سأفعل.

وطبع قبلة حانية فوق يدي، ثم قال:

ـ لا إله إلا الله.

أعطاني النصف، وسأعطيه النصف الخاص بي، ثم يجتمع النصفان عند التلاقي من جديد، هذا تقليد معروف بين العشاق.

ـ محمد رسول الله.

وترك يدي وذهب ناحية الدرج، وبدأت رحلة إغلاق الباب عندما فوجئت به يعود:

ـ بالمناسبة...

قالها بصوت عالٍ، وتجمدت يدي القابضة على حافة الباب.

ـ لا اعتراض لديَّ مطلقًا على أن يقبِّلك عمك، ولكن.. لا تدعي هذا يتم مرَّة أخرى أمام الباب، فلا أعتقد أن جميع سكان البناية يعرفون أن هذا الرجل عم لك، خصوصًا أنه لا يظهر كثيرًا!

قالها وقد حدق في عيني، ثم تركني واقفة أمضغ ذهولي وانزلق فوق الدرجات بسرعة، ولم أنتبه إلا وقد بلغ آخر الدرج بالفعل.

سيبقى هشام ـ كما عهدته دومًا ـ طفلًا كبيرًا.. لا بد أن أعتاد على هذا.

وقبل أن أغلق الباب هذه المرَّة أيضًا، رأيت شخصًا يصعد الدرج، لم يكن هشام وإنما شخص آخر أعرفه.

إنه صلاح، الفتى الذي يسكن بمفرده في الشقة العلوية، بينما يجمع ذووه الأموال في إحدى الدول على ضفاف الخليج.

ـ صباح الخير يا صلاح.

لم يرد، ربما لم يسمعني من الأصل.

أخاف أن أتهم بالنميمة أو ترويج الإشاعات، ولكن.. هذا الفتى ذو الجسم الرياضي بعضلاته المفتولة ورأسه الحليق وملابسه التي لا تزيد عن تيشيرت ضيق جدًّا وبنطال واسع جدًّا مليء بالجيوب، لا يمكن إلا أن يكون...

كلا يا نسرين، إن بعض الظن إثم.

ليس معنى مشيته البطيئة المترنحة، وعينيه الحمراوين الناعستين، وعدم اهتمامه أو سماعه لتحيتك، وخروجه من المنزل كل مساء وعودته في هذا الموعد كل صباح، بالإضافة لتلك الرائحة التي تفوح منه، أنه بالضرورة «مدمن».

إنه ما زال في الثانوية العامة، ولو كان كذلك فهي كارثة له ولأهله الواثقين فيه.

ها هو ذا يصعد في طريقه إلى شقته، لتتناسي أمره مؤقتًا، ولتنحي فكرة إبلاغ أهله بما يريبك جانبًا كما تفعلين في كل مرَّة، فأمامك الآن رحلة صعبة تمتد لساعات طويلة في صحبة شيطان منزلي صغير.

أغلقت الباب، ولم يسترح قلبي للهدوء المخيم.

ـ حمادة.

ولم يجبني أحد.

معنى هذا الصمت لا يريحني أبدًا، فالأطفال من عينة هذا الحمادة لا يعني صمتهم إلا كارثة، ربما يفوق حجمها حجم الضجيج الذي يصدرونه في المعتاد.

٣

نصف ساعة من البحث مضت دون جدوى!

شقتنا ليست بهذا الاتساع الذي توحي به الفترة الزمنية المذكورة، وهو تفسير جيد للخوف الذي بدأ يتسرب إلى قلبي رويدًا رويدًا.

أين أنت يا حمادة؟!

ـ حمادة.. حماداااا!

في كل زاوية من الشقة فتشت.. الصالة، غرفة الصالون، المطبخ، دورة المياه، غرفة نومي وغرفة نوم أبي، الدهليز القصير الواصل بينهما، الشرفة الواسعة التي لم أفتحها منذ ليلة أمس، كدت حتى أن أفتش في الصندرة التي تقبع أعلى نهاية الدهليز القصير بارتفاع مترين تقريبًا عن الأرض، لكن.. كيف يمكن أن يصعد إليها وهي بهذا العلو؟! أنا شخصيًّا لم تمتد إليها يدي طوال عمري.. كلا، لا يمكن أن يكون هذا هو مكانه.

لكن.. أين إذن؟!

رباه، أين هذا الصغير اللعين؟!

هل يمكن أن يكون قد تلاشى هكذا دون سبب، أم أنه غافلني وأنا أودع أباه و...؟!

يعجز عقلي عن تصور ما يمكن أن يكون قد حدث، والخوف يزيد عقلي شللًا.

ترى هل...؟!

وسمعت ذلك الضجيج الخافت فجأة، ليطمئن قلبي المفزوع.

بخطوات خفيفة اقتربتُ من صوان الملابس ـ مصدر الضجيج الخافت ـ القابع في ركن حجرتي، وفتحت واحدًا من مصراعيه بمنتهى السرعة والحسم، و...

ها هو ذا السيد حمادة ابن عمي المبجل قابع في داخل الصوان بين ملابسي المعلقة، متكوم على نفسه كفأر في جُحر، وعلى شفتيه ابتسامته البلهاء الدائمة.

وبمجرد أن رآني، تحولت ابتسامته البلهاء هذه إلى ضحكة أكثر بلاهة جعلتني أتميز من الغيظ.

ـ لقد وجدتني إذن!

قالها، وعاد ينفجر مقهقهًا.

لو أنجبت يومًا طفلًا كهذا، فربما شنقته وعلَّقته في ثريا الصالون!

لكن، لا مفر الآن من محاولة التعامل بقليل من السياسة، ولنرَ مدى صدق مقولة «أرسطو» الخالدة.

أخرجته من الصوان بمنتهى اللطف، مخفية رغبتي في ضربه حتى الموت تحت قناع مبتسم حنون، وجثوت أمامه على ركبتيَّ متظاهرة بهندمة ملابسه، قائلة:

ـ حمادة، أنت ولد مهذب ورائع.. أليس كذلك؟

اهتز حمادة بين يدي كقطعة من الجيلي، وهز رأسه وهو يُتأتئ نفيًا!

لا بأس، ساعدني يا «أرسطو»!

ـ ما رأيك في أن تأخذ هذه؟

سألته وأنا أمد يدي إليه بقطع ملونة مغلقة، أعرف أن الأطفال دائمًا ضعفاء أمام هذا الابتكار الإنساني الخطير.. الشوكولاتة، لهذا جعلت عم خضر البوَّاب يشتري لي بعضًا منها قبل أن يحضر عمي.

لم أكن أعلم أن حمادة سيضطرني بالطبع للجوء إلى مساومته بهذه الطريقة، لكن ليدلني أحد منكم على خيار آخر!

ـ حسن.

هتف بها حمادة في جشع اتسعت له عيناه السوداوان، ومد يده مأخوذًا، لكني أبعدت يدي على الفور، وتأتأت ثم قلت بابتسامة ظافرة:

ـ سأعطيك إياها كلها، بشرط.

عقد حاجبيه الصغيرين في ضيق وتساؤل.. يبدو أن «أرسطو» كان محقًّا، وأن حمادة يمتلك عقلية تفاوضية مبكرة!

ـ ماذا؟

قلت وبسمتي تتسع:

ـ سأتركك عند صديقة لي بعض الوقت.. ستكون طفلًا مهذبًا ورائعًا.. اتفقنا؟

وتركته يفكر في الاتفاق؛ بعقله الذي لم يتجاوز من العمر خمس سنين!

نظرت في ساعة الحائط، الساعة تقترب من العاشرة، ولديَّ «سكشن» في غاية الأهمية يبدأ بعد ساعة واحدة، للأسف لن أستطيع التغيُّب عنه بسبب نسبة الغياب المسموح بها، والتي أنهيتها عن آخرها.

عذرًا يا عمي، لا أظنك تقبل لي بالرسوب في هذه المادة، أما عن حمادة فأنا واثقة من أن نهى سوف تعتني به مؤقتًا على وجه مقبول.

ـ نعم.. هاتها إذن!

هتف بها حمادة وهو يمد ذراعه عن آخرها في اتجاه القطع الملونة، وقد أتت الأخيرة بنتائج فاقت توقعاتي، لكن لم أكُ واثقة تمامًا، والاحتياط واجب مع أمثال طفل كهذا.

ـ ليس كلها، سأعطيك واحدة فقط.. والباقي عندما أعود.

وأعطيته واحدة، فشعرت بأنه يكاد يطير من الفرح.

ـ هيا بنا.

جذبته من يده خلفي، بينما بدأ هو في التهام غنيمته دون تأخر.

تركت باب شقتنا مواربًا، وسرت خطوات قليلة حتى توقفت أمام باب شقة نهى المقابل لنا تمامًا.

نهى طبيبة شابة، تعرَّفت عليها بحكم الجوار منذ بضعة أعوام، تبادلنا الزيارات، لكن لم تنشأ بيننا صداقة قوية، إذ انشغل كل منا في عالمه، لكني أعرف عنها أن أصولها تعود إلى ريف بنها، وأنها كانت تقيم مع أمها بعد وفاة أبيها في أثناء دراستها الطبية في القاهرة، وهي على ما يبدو لا أشقاء لها ولا أقرباء، وقد أصبحت تقيم بمفردها تمامًا بعد وفاة أمها منذ عام تقريبًا، أذكر هذا جيدًا لأني حضرت العزاء، وقلما أحضر مناسبات كهذه في المعتاد.

صحيح أنني لم أرها منذ مدة تمتد إلى أسابيع، لكن «الناس لبعضها»، وصحيح أنني قد أزعجها في وقت كهذا، لكنها لا يجب أن تنسى أنها قد أزعجتني من قبل مرارًا، عندما كانت تطرق بابي بعد منتصف الليل لتطلب مني أن أتوسط لها عند أبي لحضور عدد من العمليات الدقيقة في مستشفاه غدًا، أو لعمل دراسات ميدانية على مرضاه، أو لتمضية شهرين من فترة امتيازها التدريبية الإجبارية تحت إشرافه، أو للحصول على دعوة للمؤتمر الذي يرأسه في فندق «الشيراتون» على ضفاف النيل.

إن لم تُرد أن تسدي لي خدمة، لترد لي جميلًا على الأقل!

ذوقها «الباروكي» ما زال واضحًا، لم أنتبه من قبل لرأس الثور المعدني هذا الذي ثبتته أعلى الباب، والذي ينبع من فمه مقبض للطرق.

يا للبدائية، لِمَ اخترعوا الأجراس الكهربائية إذن؟!

ضغطت زر الجرس المنقوش بنفس الطراز، كأنني عدت إلى القرن السابع عشر، ليفاجئني صوت عالٍ لموسيقى أوبرالية مفزعة، جعلتني أنتفض، في حين ضحك حمادة حتى كادت الشوكولاتة تتساقط من شدقه المملوء.

حتى الجرس؟!

ليكن ما يكون، لكني لن أتركها قبل أن تفتح الباب.

وضغطت الزر، وضغطته، وضغطته، وتكررت الموسيقى الأوبرالية، وتكررت، وتكررت، وقهقه حمادة، وقهقه، وقهقه.

وطال الانتظار دون أن يفتح أحد.

هل تكون قد ذهبت إلى العمل؟

مبلغ علمي ـ هكذا أخبرتني بنفسها ـ أنها لا تتسلم إلا نوبتجيات الظهيرة، فهي تخشى العمل ليلًا، ولا تستيقظ إلا متأخرًا.. لعلها كسرت القاعدة اليوم.

ضغطت الجرس للمرَّة الأخيرة، وبدأت أجر حمادة خلفي إلى المنزل بعد أن فشلت الخطة، يبدو أنه قد قُدِّر عليَّ أن أرسب في هذه المادة!

وانفتح الباب فجأة مع خفوت الموسيقى الفظيعة.

لم ينفتح كليًّا، سلسلة جدارية عاقته عن أن ينفتح، وأفزعني صوت توقفه المفاجئ حتى إنني شهقت وأنا أستدير إليه، لأرى عينين ترمقانني في غضب من خلال المسافة الصغيرة بين الباب وحافته.

وتذكرت أن نهى تضع خلف بابها سلسلة من هذا النوع، بالإضافة لترسانة من الأقفال والترابيس، فهي تعيش بمفردها كما أسلفت.

ـ مَن؟

هذا صوتها، أعرفه جيدًا، لكن.. لماذا لم تنظر قبلها من العين السحرية؟

ـ صباح الخير يا نهى.

قلتها وأنا أكسو لهجتي بما استطعت من الود.

ـ أنا نسرين.. نسرين الجبالي.

لم ترد، وظلت ترمقني بعين الغضب الحمراء، فتنحنحت وقلت من باب الأخلاق الحميدة:

ـ آسفة إن كنت أيقظتك من النوم، ولكن...

قاطعني صوت نزعها للسلسلة فجأة، وانفتح الباب مُصدرًا صريرًا مزعجًا للغاية.

ووقفت نهى أمامي بعينين خضراوين منتفختين، ووجه شاحب، مرتدية مبذلًا له حبل مربوط فوق الخصر، وطرحة تغطي نصف شعرها الخشن، كأنها تخبرني بأن لا أهلًا بي ولا سهلًا!

ـ أهلًا وسهلًا!

قالتها في جمود، ولم أكن أريد الرسوب فداءً لكرامتي المهدرة.

ـ كيف حالك يا عزيزتي؟ لم أرك منذ مدة.

قلتها مستنزفة مخزوني الإستراتيجي كله تقريبًا من الود، ومن الكرامة، فقالت هي وقد تحوَّل الجمود إلى برود:

ـ مشغولة ببعض الأمور، لا عليك.

وأشاحت بيدها كأنها تطردني، ثم نظرت إلى حمادة وقد هداها ذكاؤها في الغالب إلى الغرض من الزيارة.

تبًا لكِ، إنك حتى لم تدعني للدخول، لو لم أكن مضطرة لما ترددت للحظة في أن ألكمك في أنفك!

أخفيت مشاعري هذه بصعوبة، وقررت هذه المرَّة أن ألجأ لمخزوني الإستراتيجي من السماجة، وهو لعمري مخزون وفير.

سألتها مبتسمة:

ـ هل ستتكلم هكذا أمام الباب؟!

نظرت في وجهي وقد أدركت ما أعنيه، ولمحتُ على وجهها أقصى أمارات الضيق والتأفف وهي تُفسح لي مجالًا للدخول قائلة:

ـ كلا بالطبع، تفضلي.

وتفضلت بكل شمم، دون أن أترك حمادة يفلت من يدي، وقابلتني رائحة بخور نفاذة فور دخولي، نفاذة إلى درجة أصابتني بالدوار.

أغلقت نهى الباب، ووقفت تنتظر أن أتحدث، لكنها رأتني في حالة تشبه الذهول، وعيناي تجولان في أنحاء الصالة.

دعكم من الذوق «الباروكي» المستفز في الديكور والأثاث، لقد أتيت هنا من قبل وليس هذا جديدًا عليَّ، ثم إن الذوق المذكور ليس مدعاة للذهول بأي حال من الأحوال، خصوصًا حين تكون الديكورات والمقتنيات نُسخًا مقلدة غير ثمينة وغير باهظة التكلفة.

الفوضى؟! هذا أيضًا ليس مستبعدًا من شابة تعيش بمفردها وتعمل في الحقل الطبي، وإن كان مدعاة لشيء، فللرثاء لا للذهول.

ما جذب انتباهي في البداية بعد الرائحة النفاذة، هي تلك الجماجم.

نعم، جماجم كثيرة متراصة في غير نظام على رف من رفوف المكتبة الكائنة في صدر الصالة، ارتجف جسدي لمرآها بعيونها المجوفة المظلمة المرعبة.

ثم.. شموع، عشرات الشموع، بعضها جديد وبعضها تم إشعال ذؤابته، تناثرت بألوانها المختلفة في غير نظام على الأريكة الخشبية القريبة، وبعضها سقط فوق الأرض ذات البلاط المتسخ، وجميعها مطفأ.

ثم.. ذلك الكتاب المجلد العتيق بغلافه المهترئ، وأوراقه الصفراء البارزة من الحواف، القابع مغلقًا فوق المقعد حول الطاولة المستديرة، والمدوَّن على كعبه بماء الذهب عبارة بخط يمكن فك طلاسمه بشيء من المجهود: «مفتاح الملك سليمان».

ثم.. الطاولة المستديرة نفسها، التي تراصت حولها أربعة مقاعد،

والمغطى سطحها بملاءة سرير. ربما نهى فعلت هذا قبل أن تفتح إذ لم تُرد أن أرى ما كانت تفعل.

ثم...

ـ هل أعد لك كوبًا من الشاي؟

قالتها نهى وهي تدنو مني، وبالطبع يمكن استنتاج اللهجة التي قيلت بها هذه الدعوة الميمونة.

أفقت من ذهولي، ونظرت إليها نظرة طالت، قبل أن أستعيد رباطة جأشي وأقول متناسية كل هذه الإثارة من حولي:

ـ شكرًا، لقد تناولت إفطاري بالفعل.

ورأيت في عينيها تساؤلًا: «أي ريح خبيثة ألقت بك إذن؟»، فسارعت أجيب قبل أن تترجمه إلى كلام منطوق قد يكون جارحًا لكرامتي المجروحة أصلًا:

ـ في الحقيقة، جئت أطلب منك خدمة صغيرة.

ما زال حمادة يلتهم الشوكولاتة، ما زال هادئًا إذن.

ـ بالطبع!

قالتها على مضض بعد صمت لحظي كدت فيه أتلاشى حرجًا، لم أكن لأتورع عن قتلها لو كانت الإجابة بالرفض.

داعبت بأصابعي شعر حمادة، وقلت ناظرة إليه في أمومة كاذبة:

ـ سأترك حمادة ابن عمي في رعايتك لمدة ساعتين فقط، ثم أعود لآخذه.

تنهَّدت، ونظرت إلى الأرض قليلًا، وتلاعبت بأعصابي المحطمة في سادية، قبل أن تسألني عاقدة ساعديها أمام صدرها:

ـ ساعتان فقط؟

أخذت السؤال على المحمل الطيب ـ برغم أنه لم يكن كذلك ـ وقلت في حماسة كأنني أتعلق بموافقة لم تصدر منها:

ـ نعم، لديَّ «سكشن» مهم في الكلية.. هي خدمة لن أنساها لك ما حييت.

في الأمثال الشعبية يطلقون على تصرفي هذا مثلًا لا أذكره وإن كنت أذكر تعلقه بالكلب والسيادة، ثم إني ضغطت على لفظة «خدمة» لأُذكرها بما أسديته لها في الماضي، علها تتذكر.

زفرت صهدًا صيفيًّا، وعادت تتلاعب بأعصابي ناظرة هذه المرَّة إلى سطح المنضدة المغطى، حتى مطت شفتيها متحسرة في النهاية لتقول:

ـ لا بأس.

وكان هذا أفضل ما يمكن توقعه منها في ظرف كهذا.

ـ أشكرك بشدة، ستجدين حمادة قمة في اللطف والتهذيب.. أليس كذلك؟

وجهت سؤالي لحمادة ولم يجبني، ربما لم يسمعني أساسًا في غمار انهماكه فيما يلتهم، ثم رفعت رأسي نحو نهى المكفهرة متمتمة كأنه أجابني:

ـ هل رأيت؟

كاد وجهها الشاحب ـ الذي عرفت بعض الحمرة الوردية طريقها إليه ـ ينفجر وهي تقول:

ـ سأُجلسه في غرفة نومي، وأشغل له التلفاز على قناة الكرتون..

حاولي ألا تتأخري.. رجاءً!

ـ أعدك ألا أفعل.

تسلمت يد حمادة من يدي ووجهها يأخذ سمتًا أكثر اسودادًا، ولاحظت جرحًا قطعيًّا ملتئمًا بطول إبهام يدها اليسرى.

أعرف أني قوية الملاحظة، وما لي في هذا حيلة.

ـ كن ولدًا طيبًا يا حمادة، أستأذنك يا عزيزتي.

وغادرت مسرعة نحو الباب كأنما أهرب، ورغبة قوية تغمرني بأن تنشق الأرض وتبتلعني.

لكن، وإتمامًا لما ذكرت من قوة ملاحظتي، رأيت تلك العلبة الكرتونية العريضة والفارغة تبرز خارج علبة القمامة الماثلة إلى جوار الباب.

ورأيت جيدًا الكلمة اللاتينية الكبيرة المكتوبة فوقها، وخلفها رسم مميز أعرفه: «ويجا».

هكذا إذن؟

لقد عرفت ما تصنع نهى، وما تحاول أن تخبئ تحت الملاءة، وليس لقوة الملاحظة هنا أدنى علاقة.

٤

«ويجا» كلمة بلا أصل معروف، هناك من يدعي أنها اللفظة الفرعونية لتعبير معناه «الحظ الحسن»، وهناك من يقول إنها كلمة مكونة من شقين: «وي» وهي كلمة «نعم» في قاموس الفرنسية، و«جا» وهي أيضًا كلمة «نعم» لكن في القاموس الألماني، وهنا عدد من الادعاءات الأخرى ضاع بينها الأصل الحقيقي للكلمة.

الـ«ويجا» لوح يُباع في محال الألعاب العادية بأسعار في المتناول، تملك حقوق توزيعه عالميًّا شركة «باركر إخوان» الأمريكية، ويحتل هذا اللوح ثاني أعلى مبيعات ألعاب الألواح عالميًّا بعد اللعبة الأشهر «احتكار» أو «مونوبولي» والتي تُعرف لدينا باسم «بنك الحظ»، وإذا كانت اللعبة الأخيرة تعتمد على مهارات البيع والشراء والمنافسة المالية والعقارية، فإن «الويجا» هي لعبة تحضير أرواح!

لا خطأ في العبارة ولا سخرية ولا مبالغة، إنها كذلك بالفعل.

إنها عبارة عن لوح تتراص فوقه حروف الهجاء اللاتينية في صفين مقوسين في المنتصف، أسفلهما وفي صف واحد مستطيل تتراص

الأرقام العربية (اللاتينية كخطأ شائع) من الصفر إلى التسعة، وفي الطرفين العلويين للوح هناك كلمتا «نعم» و«لا»، وفي القاع كلمة «إلى اللقاء». هذا هو التصميم الأشهر والأكثر شيوعًا للوح، والذي أرساه «وليام فالد» عام ١٨٩٠ في «بالتيمور». هناك تصميمات أخرى لا تخرج عن هذا الإطار العام إلا في بعض التفاصيل الضئيلة.

هناك جزء آخر مهم من اللعبة، المؤشر أو «البلانشيت»، وهو عبارة عن لوحة خشبية أو معدنية صغيرة قائمة على عجلتين، ابتكرها أولًا رجل فرنسي يحمل اسم «بلانشيت»، وكانت في البداية مزودة بقلم عمودي، يضعونها فوق ورق أبيض، ويمسك رجلان بطرفيها في جلسة تحضير الأرواح، ويتركان لها العنان فتكتب الروح الحاضرة ـ كما يعتقدون ـ أو ترسم إجابات لما يسألونها عنه، ويتم التحاور بهذه الطريقة.

وابتعادًا عن الغموض في فك طلاسم الكتابة أو الرسوم التي يخطها القلم، تم إضافة «البلانشيت» إلى لوح «الويجا»، على أن تستخدم الروح الحاضرة الحروف والأرقام والكلمات المطبوعة فوق اللوح الخشبي للتحاور، عوضًا عن القلم.

طبعًا لم أكن أعلم كل ما سبق وقتها، لكني كنت أعرف اللوح واستخداماته من خلال فيلم سينمائي شاهدته، وبالتالي خلصت إلى نتيجة زادتني ذهولًا

نهى تمارس هذا النشاط وحدها في المنزل.

لعل هذا إذن هو سر الشموع والجماجم والكتاب العتيق والطاولة المستديرة المغطاة ورائحة البخور النفاذة!

هل تحاول تحضير روح أمها، أم أبيها، أم «أبقراط» أبو الطب شخصيًّا؟!

* * *

تسألونني: هل تصدقين هذه الأشياء يا نسرين؟

أجيب بكل رزانة: لا أفتي فيما لا أعرف.

تسألونني: لِمَ تهربين من الإجابة؟

أجيب بكل تعقل: لأنني لا أحب أن أفتي فيما لا أعرف.

تسألونني: وحمادة؟

أجيب بكل ثقة: حمادة عفريت، لا تخشوا عليه واخشوا على الأرواح منه!

* * *

انتهى «السكشن» مبكرًا عن موعده بربع ساعة.

هي فرصة جيدة لقضاء بعض الوقت في الكافتيريا مع رحاب، ومروة، وشيماء رويتر، قبل العودة إلى جحيم المنزل والمذاكرة وحمادة!

ـ هل أنهيت ما نويت مذاكرته البارحة؟

سألتني رحاب وهي تضع حقيبتها فوق منضدة بزاوية الكافتيريا، فأجبتها وأنا أجلس، وأعدِّل من وضع منظاري الطبي فوق أنفي:

ـ كلا، ليس بمقدار الربع حتى.

تكلمتُ في أسى وضيق، فابتسمت شيماء ورمقتني بنظرة ماكرة ثم قالت:

ـ نسرين وعادتها في التصنع والمداراة.

ـ صدقنني، هذا ما حدث.

وشرعت أروي لهن قصة عمي وزيارته المبكرة ومأساة حمادة ونهى و... و...

وبصراحة مطلقة، كنت بالفعل أتصنع وأداري.

مَن أدراني أنهن سوف تقلن الحقيقة بكل أمانة إذا ما كنت أنا السائلة؟

مَن أدراني أنهن لا تسألن إلا لتعرفن ما أنجزته، ثم تعملن سرًّا بجد وكد للتفوق عليَّ، بمذاكرة ما لم أذاكره؟

كلنا نفعل ذلك بلا استثناء، ومَن كان منكم في هذه الأمور لا يتصنع ولا يداري فليرجمني بألف ألف حجر، حتى الموت.

ـ سأدعوكن على مشروب مثلج اليوم.

قلتها مغيرة دفة الحديث الذي أمقته، أتيت هنا للتغيير لا للحديث في الدراسة والمذاكرة.

ـ خيرًا إن شاء الله.

قالتها مروة في دعابة وقور، بينما تألقت عينا شيماء وهي تسألني في دعابة فجة:

ـ هل ورثت المستشفى أخيرًا أم ماذا؟

وقالت رحاب بدورها، حتى لا يفوتها قطار الاستظراف السريع:

ـ أم لعلها ثروة عمك ـ رحمه الله ـ المقيم في البرازيل.

ـ ظريفات حقًّا!

قلتها مستسخفة، ونهضت متابعة:

ـ كل ما في الأمر أنني قد تسلمت مكافأة التحقيق الأخير.

قفزت شيماء من فوق مقعدها مثل «فرقع لوز»، وهتفت:

ـ في هذه الحالة سوف أصحبك شخصيًّا.

رفعت سبابتي وقلت محذرة:

ـ لكل منكن مشروب واحد فقط، إنهم لا يعطونني الملايين في الجريدة.

ـ على الأقل تكتبين بمقابل.

ـ لا جعل الله لنا جارًا بعينين!

وسرت مع شيماء حتى توقفنا أمام البائع، طلبت منه علب الشراب المثلج، ولفتت نظري الفتاة الواقفة بجواري في انتظار من يلبي طلبها.

بيضاء جدًّا، كأنها كانت تسبح لتوها في بحر من القشدة الصافية، وقد زادت ملابسها السوداء والمنظار الشمسي الداكن الذي يخفي عينيها من وضوح هذا البياض الرهيب.

ـ تفضلي.

ناولها البائع كوبًا من الكركديه الأحمر القاني كالدم، فنقدته حسابه ومضت دون أن تنطق بكلمة، وعلى الفور بدأت شيماء في التحول إلى «رويتر»:

ـ أتعرفين مَن هذه؟

قلت وأنا أتناول وأناولها علب الشراب من البائع:

ـ بالطبع لا

وفي طريق العودة إلى المنضدة لم تبخل عليَّ شيماء بما تعرفه، وما لايهمني معرفته:

ـ اسمها جميلة، جميلة عباس على ما أتذكر، طالبة في الفرقة الدراسية الأولى، وهناك هالة من الأقاويل الكثيرة والمرعبة حولها! يقولون إن أفراد أسرتها كلهم: أب وأم وأخ أصغر، قد ماتوا بعد شهور قليلة من دخولها للكلية.. هناك مَن يقول إنه حادث سيارة، ومَن يقول إنهم غرقوا معًا في رحلة بحرية، ومَن يقول إن حريقًا شب في القصر الريفي المقام في قلب العزبة التي يمتلكونها بالمنصورية.. لا شيء مؤكد في هذه النقطة البتة، لكن المؤكد أنهم ذهبوا تاركين لها وحدها ثروة مهولة تقدر بالملايين.. أعلم أنك تتساءلين بينك وبين نفسك: لماذا لا يظهر عليها آثار هذه الثروة المبالغ فيها؟ لديك حق ولكن...

ومالت عليَّ ليتحول حديثها إلى الهمس:

ـ يقال إن واحدًا من أقربائها قد استولى على الثروة بطريق غير مشروع، وبغير وجه حق، ويتردد الهمس الكثير أيضًا بين الطلبة بشأن الأصوات الرهيبة والمفزعة التي تصدر من مسكنها في مدينة نصر ليلًا.

سألتها بدهشة:

ـ أي أصوات؟!

هزت كتفيها وهي تجيب ببساطة:

ـ لا أدري، أصوات لا أحد يدري كنهها، الخبر غير مؤكد، لكنك تعرفين ولع الطلبة بالشائعات، خصوصًا من هذا النوع اللامعقول.. ربما لهذا يتحاشى الجميع الاقتراب منها والتعامل معها، وهي بدورها تظهر قليلًا وتتحاشى الجميع.

عدنا إلى المنضدة وقد نجحت قصة شيماء الغريبة في الاستحواذ على جزء من تفكيري.

لا علاقة لي بتاتًا بهذه القصة، ولكن...

لماذا يبدو هذا النهار منذ بدايته غريبًا وكئيبًا؟!

* * *

حاملة وجبتين من الدجاج الأمريكي الشهير هبطت من سيارة الأجرة، نسيت أن أخبركم أن هذا هو طعامي المعتاد، فلست من هواة المطبخ على الإطلاق، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بوجبة رئيسية كالغداء.

ستكون هذه الوجبة وسيلة تأثير إيجابية أخرى على حمادة حتى يعود والده.

تُرى كيف أمضى وقته مع نهى المهووسة بتحضير الأرواح؟

تُرى هل تصرف كطفل وديع ومسالـ...؟

ما هذا؟!

أليس الجالس هناك على المصطبة الخالدة بجوار مدخل البناية هو عم خضر البوَّاب؟

بلى، إنه هو.

مضطجع كأنه أمير الزمان، يدخن النارجيلة بمنتهى الشمم والكبرياء، ويلقي بنظرات مختالة على الداخلين والخارجين دون أن يُحرك ساكنًا، «البيه البوَّاب» حقًّا!

إلى هذا الحد والأمر معتاد وبسيط.

لكن.. هل يجلس حمادة بجواره، أو أن في الأمر نوع من الخداع البصري؟

هرولت عاقدة حاجبي وممعنة النظر.. أجل، هو حمادة بشحمه ولحمه وملابسه التي غيرها في المنزل منذ سويعات، ينظر إلى النارجيلة في صمت وهيام كأنه يمني نفسه بتجربتها.

ـ عم خضر.. أتعرف مَن هذا؟

في ترفع أشار العم خضر بذراع النارجيلة الطويل، قائلًا:

ـ ومن أين لي أن أعرف؟ إنها مصائب تُقذف في وجوهنا والسلام!

رآني حمادة فأفاق أخيرًا من شروده، وأشار نحو النارجيلة هاتفًا:

ـ تانت نسرين.. ما هذه؟

سألني العم خضر كأنه «كولومبو»:

ـ أيعرفك؟

سحبت حمادة من يده وأنا أخاطب العم خضر بقولي:

ـ لا عليك، إنه ابن عمي.

ثم ولجت مدخل البناية جاذبة خلفي الصغير الذي هتف في إلحاح:

ـ ما هذه؟ أريد مثلها.. أريد مثلها!

يا للتشرد!

لكن هناك ما هو أهم الآن من رغبة السيد حمادة في أن يصبح مدخنًا.

ـ قل لي، هل طردتك نهى أم ماذا؟

سألته في صرامة ونحن نصعد درجات السلم، فاستعاد حسه المشاغب في لحظة أو أقل:

ـ صديقتك الحمقاء؟! كلا، لقد مللت الكرتون فغافلتها وتسللت من الباب إلى الخارج.

وضحك في جذل قبل أن يضيف كأنه فتح عكا:

ـ هذا كل ما هنالك!

كان من الممكن أن تحدث كارثة إذن لولا أن الله سلَّم.. فكرت في أن أطرق بابها قبل العودة إلى المنزل؛ لأوبخها بأقذع ما قد تسمعه من مخلوق طوال حياتها، وربما تماديت فصعَّدت الأمر إلى عراك بالأيدي تنفيسًا للكبت الذي أعانيه، لكن...

ـ أين باقي قطع الشوكولاتة؟ ألن تعطها لي كما وعدتني؟

ليس الآن.. فيما بعد سأجد وسيلة مثلى للانتقام.

فيما بعد.

٥

تناولت الغداء بصحبة حمادة، وشعرت بعدها بثقل في رأسي وجفوني التي احمرت بفعل قلة النوم، شربت كوبًا من الشاي وجلست فوق مقعد أبي الهزَّاز أشاهد برنامجًا مثيرًا تبثه محطتي الفضائية العربية المفضلة للأخبار.

عقدتُ قبلها اتفاقًا مع حمادة ونحن نأكل الشوكولاتة: أن يظل هادئًا حتى أجلب له علبة كبيرة مملوءة بأصناف لا يتخيلها من الحلوى، كنت أعرف أنه سينكث الاتفاق في أول فرصة تسنح له بذلك، لكن ماذا بوسعي أن أفعل أفضل من هذا؟

إنه في غرفتي الآن يتسلى بالقفز فوق حشية سريري الإسفنجية، المهم أن التجربة علمتني فضيلة إغلاق الباب جيدًا حتى لا نضطر لنشر صورة حمادة على قمة عمود المفقودين في صحف الغد الصباحية.

الساعة الآن قد جاوزت الثالثة عصرًا بقليل.

لن يهاتفني هشام اليوم بعد عودته من العمل كما يفعل يوميًّا، أفتقده بشدة ولو حتى على سبيل الاعتياد.

أبي يُصر على أن يجعلني أفقد الأمل في عودته أو حتى سؤاله بالهاتف.

عمي لم يتصل كأنه قد سعد أخيرًا بالتخلص من وحيده.

البرنامج مثير ككل حلقاته السابقة، ضيفان يجلسان متقابلين وبينهما المذيع الشهير الهادئ، وكل منهما يكيل للآخر الكلمات كأنها لكمات، الأصوات تعلو، والنقاش يحتد، ويكاد كل منهما أن يقفز متعلقًا في رقبة الآخر، فلا يجد المذيع سبيلًا لتهدئة الوضع سوى استقبال مكالمة هاتفية من الجمهور.

لكن موضوع هذه الحلقة فريد من نوعه حقًّا: «تحضير الأرواح»! هل هي صدفة؟

الإثارة بالنسبة إليَّ مضاعفة، فهذا الرجل الجالس على يمين المذيع، ذو الملامح الهندسية، واللهجة التي فاحت منها روائح الريف من بعيد، بشعره الفضي غير المتناغم مع حاجبيه الأسودين الكثيفين، والحلة الأنيقة التي تلمع تحت أضواء الاستديو؛ هذا الرجل هو الدكتور مشهور فراج، طبيب الأمراض النفسية والعصبية الأشهر في العاصمة، ورئيس الجمعية الدولية للطب النفسي، وصديق من أصدقاء أبي المقربين، بحكم تقارب التخصص على الأقل.

فهمت من حديثه أنه يتخذ جانب الضد، أمام شاب غريب المنظر حقًّا، برأسه الحليق تمامًا على النِّمرة (زيرو)، وعويناته الصغيرة المستديرة، وجلده المشدود الذي يلمع كأنه مدهون بالورنيش، وملابسه البسيطة التي لا يظهر منها سوى تيشيرت أسود رُسم فوقه هرم ذهبي، وعندما صورته الكاميرا في «كلوز أب» قرأت

اسمه مكتوبًا أسفل الشاشة في وضوح: سامي تيمور، خبير في علم الروحانيات!

ـ سيد سامي، من فضلك، ما تعقيبك على النقطة الأخيرة التي طرحها المشاهد «ب.ع» من الجزائر؟ يقول المشاهد العزيز إن من أهم قواعد تحضير الأرواح أن يكون كل الجالسين في الدائرة مؤمنين تمامًا بمصداقية ما يتم، وأن الكثير من الجلسات يعزى فشلها إلى وجود واحد من الحاضرين غير مصدق أو غير مقتنع.. أليس هذا في حد ذاته طعن في مصداقية ما تدعونه؟

صمت المذيع، وتكلم سامي.. صوته ناعم جدًّا يبعث في الأوصال الخدر، ويلقي على الأجفان غبار النعاس السحري:

ـ ليس المكذبين أو المتشككين فقط، وإنما أيضًا تفشل الجلسات بسبب وجود حاضرين يحملون في أعماقهم مشاعر كالخوف الشديد أو الكراهية الشديدة أو الحسد الشديد.

واستخدم يديه في التعبير متابعًا:

ـ السؤال هنا ببساطة: لماذا؟ والإجابة أبسط من السؤال. لأن مسارات الطاقة الناجمة من هذه المشاعر تتعارض مع المسارات الروحية المطلوبة في جلسة كهذه. إننا نتحدث عن الاهتزازات، والاهتزازات النابعة من المشاعر الطيبة كالحب والود والإيمان هي التي تتناغم مع حضور الأرواح، لهذا يفضل أن تكون الإضاءة خفيفة، وأن يتم تشغيل نوع من الموسيقى الناعمة الخافتة في الـ...

قاطعه الدكتور مشهور بنبرة جهورية تليق بأستاذ مخضرم:

ـ تحدث عن قابلية الإيحاء يا سيدي، أو عن الوهم الجماعي، أو العشرات الذين نعالجهم في عياداتنا ومستشفياتنا؛ ممن مروا بتجارب كهذه؛ فتحت أبوابًا خفية في أعماق لاوعيهم على ما لم يكونوا ليتصورونه حتى في أبشع كوابيسهم.

انتظر سامي حتى تأكد من أنه قد فرغ من كلامه، كان واثقًا فيما يبدو أنه لن يستطيع مجاراة غول جدلي كهذا الجالس أمامه، لكنه انتوى أن يبذل ما في وسعه فقال:

ـ إنني أتحدث عن واقع عشته ولمسته بيدي يا دكتور، وليس معنى أننا لا نفهم ظاهرة ما أنها محض افتراءات وخزعبلات، هناك الكثير جدًّا والمثير جدًّا خلف المدى المحدود لحواسنا الخمس.. اسأل «هانن سوافر» نقيب الصحفيين البريطاني المتوفى عام ١٩٦٢، الذي دخل إلى ميدان البحث الروحي مصممًا على أن يزيح النقاب عن هذا الإفك الأعظم الذي كان قد استشرى في بلاده على حد تعبيره، وانتهى به الأمر للاقتناع الكامل بالروحية وبصحة ظواهرها، وتأليف سفر ضخم بعنوان «قصتي العظمى» عام ١٩٤٥، روى فيه قصته مع «نورثكليف» و«سيلفر بيرش» وغيرهم.

ابتسم الدكتور مشهور فيما يشبه التهكم، وقال:

ـ دعني أحدثك إذن يا سيدي عن منهج البحث العلمي الشهير الذي بنت عليه الأمم حضاراتها وتقدمت للأمام، ذلك المنهج القائم على التجربة والقياس والمتابعة.. إنني أومن بوجود كثير

مما أجهله في هذا الكون الشاسع المترامي الأطراف، فأنا مؤمن والحمد لله، لكني أرفض أن أحيل كل الظواهر غير المفهومة لحاسة سادسة لا وجود لها.

ـ الروحانيات علم قائم بذاته فعلًا، دراسته تعتمد أولًا على وجود موهبة كما هو الحال في دراسة الفنون والآداب.. ألم تفكر في حضور جلسة كهذه من قبل يا دكتور دون أن تشحذ ذهنك مسبقًا بما يهرف به أولئك المدَّعون الدجالون المشعوذون؟ ألم تفكر في حضور تجربة التحضير بالوسيط أو بالسلة أو بلوح «الويجا» أو...؟

ـ اسمح لي أن أقاطعك بتعقيب بسيط ما دمت قد أثرت هذه النقطة، وأعود لما كتبه طبيب أمراض نفسية أمريكي محترم يُدعى...

وقلَّب الدكتور مشهور في أوراق أمامه قليلًا، ثم قال مرتديًا عويناته ومحدقًا من خلفها في وريقة:

ـ «كارل ويكلاند»، أنقل لك مقتطفًا من كتابه «ثلاثون عامًا بين الأموات»: إن استخدام لوح «الويجا» يؤدي إلى نوع خطير من الجنون يستلزم بالضرورة الإيداع في مصحة علاجية.. بالمناسبة هذا الكتاب صادر في عام ١٩٢٤

واستمر الحوار على هذا المنوال، غير أني لم أعِ جيدًا ما قيل بعدها، إذ سقطتُ نائمة على الرغم مني، في جلستي المستكينة على الكرسي المهتز ببطء حنون.

النوم ضيف لا مفر من استقباله حتى لو لم نكن مستعدين.

وصحوت فجأة على رنين الهاتف.

استغرقت بضع لحظات كي أفيق، تساءلت بيني وبين نفسي كما فعل أهل الكهف: تُرى كم لبثت؟ نمت طويلًا على ما يبدو، فالشمس غابت كما يتبدى من زجاج الشرفة، والظلام في طريقه للحلول.

الهاتف يرن، لكن...

أين حمادة؟

لا أسكت الله له حسًّا.

ـ آلو.

قررت أن أرد أولًا ليصمت هذا الرنين المزعج، ثم أبحث عن ذلك العفريت الصغير الذي أتمنى ألا يكون قد صنع كارثة ما.

ـ أيقظتك من النوم لا ريب.

هذا عمي ممدوح، تذكر أخيرًا أن يتصل الآن، الساعة السابعة مساءً كما تخبرني ساعة الحائط القريبة ذات العقارب الفسفورية.

ـ كلا يا عماه.. كلا، كنت...

وانتبهت إلى جهاز التلفاز الذي تعلو شاشته الآن الحلقة رقم تسعة بعد الستمائة من المسلسل المكسيكي المدبلج اللعين.

ـ أشاهد التلفاز.

سألني في مرح:

ـ هل أتعبك حمادة بما فيه الكفاية؟

ـ اطمئن.

وتثاءبت مرددة:

ـ الوضع تحت السيطرة الكاملة.

لكني لم أخبره بالطبع أنني أجهل الآن مكانه.

ـ سأعود لأخذه بعد أقل من نصف الساعة.

ـ ستتناول العشاء معي إذن.

ـ كلا، لا أريد أن أجهدك.

ـ اطمئن، لست ربة منزل ماهرة.. سأطلب عشاءً جاهزًا من مطعم قريب.

ـ كان الله في عون المباحث الجنائية.

ـ سأنتظرك.

ـ لن أرفض أمام هذا الإصرار، فلم أتناول شيئًا منذ الصباح.

ـ لا تتأخر.

ونهضت متكاسلة لأبحث عن السيد المبجل.

ـ ماذا دهاك يا «أنطونيو»؟ ستتركني وتتزوج من «مانويلا»؟

ـ ألم يخبرك العم «سانتياجو» بأن «فريسكا» معترضة على زواجنا منذ البداية؟

أغلقت التلفاز الذي يعرض المسلسل المشوق جدًّا، وتأكدت من أن الباب الخارجي موصد جيدًا كما تركته، وأن مفتاحه ما زال فوق الثلاجة في نفس المكان الذي وضعته فيه قبل النوم.

ما زال السيد المبجل في المنزل كما تقول الدلائل.

لكن.. هذا الصمت المريب!

في الظلام دلفت إلى حجرتي، ضغطت زر الإنارة فرأيتها كما لم أرها في حياتي من قبل، مقلوبة رأسًا على عقب بكل ما تحمله حروف التعبير من معانٍ.

فتحت الصوان ولم أجده.

خرجت إلى الدهليز القصير وأنرته، أين يمكن أن يكـ...؟

ها.. وقعت أيها السيد المبجل هذه المرَّة!

لقد تركت دليلًا دامغًا على مكانك.

الصندرة العالية في نهاية الدهليز، وإلا فما معنى هذا المقعد أسفل مصراعيها، والذي وضعت فوقه وسادات كثيرة تساعدك على الوصول إليها بقامتك المتناهية في القصر، أيها العفريت الصغير ذو السنوات الخمس؟

بل ما معنى المصراعين المواربين اللذين لم تمتد لهما يدي منذ كنت في المهد حتى اليوم؟

يا للفضول! ويا للدهاء!

صعدت بقدمي فوق المقعد بعد أن ألقيت بالوسادات جانبًا، فتحت مصراعي الصندرة ورأيت السيد المبجل حمادة جالسًا داخلها، منهمكًا في ممارسة هوايته الأثيرة ـ العبث ـ بمنتهى الاستمتاع، دون أن يخشى شيئًا من الظلام!

يا للجرأة! ويا للمشاغبة!

ـ حمادة.. ماذا تفعل عندك؟!

هتفت بها مغالبة دهشتي بصعوبة، ونظر هو نحوي مغتبطًا ليجيبني في سرور:

ـ لديكم ألعاب جميلة ها هنا.

لكن.. ما هذه الجمة الشقراء القصيرة فوق رأسه؟

وما هذا الشيء الأسطواني الصغير الذي يمسك به بين يديه؟

بل وما هذان الصندوقان القديمان المستقران في الصندرة وحدهما، وسط عدد من المهملات التي يعلوها غبار بكميات هائلة؟

يا للدهشة! ويا للغرابة!

ـ من أين أتيت بهذه الأشياء؟

سألته وقد عجزت عن مغالبة دهشتي هذه المرَّة، ومددت يدي منتزعة ما في قبضته دون أن يقاومني لأكتشف أنه...

ـ من داخل هذا الصندوق.

إصبع طلاء شفاه قديم جدًّا.

ـ فيه الكثير من هذا، أحضر لك واحدة؟

ـ كلا، اخلع هذا الشيء عن رأسك، واهبط على الفور.

صاح مستنكرًا:

ـ لماذا، وهنا ألعاب جميلة؟!

كنت أدرك صعوبة انتزاعه من موقعه هذا، لكني لم أكن في حالة تسمح لي بممارسة أي ألاعيب سياسية، مع الاعتذار لخالد الذكر «أرسطو».

لذا حملته في عنف وسط صرخات استجداء وعناد وتملص منه.

ـ تعال إلى هنا.

ـ كلا، اتركيني.. لا أريد.. لا أريد.. اتركيني.

حتى سقطت معه فوق الأرض في النهاية، في نفس اللحظة التي رن فيها جرس الباب.

ـ أرأيت؟ سأشكو لوالدك إن لم تنهض معي الآن.

نهض على مضض، لن أخبركم بالطبع عن القذارة التي علت وجهه وملابسه بفعل الغبار المتراكم وطلاء الشفاه، لكن.. كل شيء قابل

للإصلاح، ولنحمد الله على أن عمي قد أحضر عددًا من الملابس النظيفة تحسبًا لطوارئ كهذه.

بمنتهى السرعة، ومتجاهلة جرس الباب الثاني نزعت الجمة عن رأسه، وصعدت فوق المقعد واضعة إياها وإصبع الطلاء داخل الصندرة، رمقت الصندوقين القابعين في المنتصف بنظرة خاصة ذات مغزى، ثم أغلقت المصراعين على الفور.

أدخلت حمادة إلى دورة المياه، وأشرت لحوض الاستحمام قائلة:

ـ هيا.. اخلع ملابسك وخذ حمَّامًا، لا أريد لوالدك أن يراك في هذا الشكل المزري حتى لا يعاقبك.

ولم أنتظر منه ردًّا، أغلقت عليه الباب وسارعت نحو الخارج، لم ينبعث جرس ثالث كأن الطارق قد مل، وفي نهاية الدهليز كدت أصطدم بشخص ما، فشهقت في فزع مهول:

ـ مَن؟!

و احتواني أبي في حضنه مهوِّنًا:

ـ على رسلك.. اهدئي قليلًا.

كان هو الطارق إذن، وعندما لم أفتح الباب له ظنني نائمة أو خارج المنزل ففضل الدخول مستخدمًا مفتاحه الخاص.

ـ ما بك؟! ولِمَ هذه الهرولة؟!

انبعث صوت المياه السارية من دورة المياه، مع صوت حمادة يغني أغنية شعبية هابطة، ومنعت نفسي من الضحك بصعوبة لأجيب أولًا عن التساؤل المستغرب اللائح في عيني والدي الحبيب، الذي عاد أخيرًا بعد طول غياب:

ـ لدينا ضيف خاص جدًّا.

ولما تحول التساؤل في عينيه إلى تساؤلات، رويت له ملخصًا سريعًا لما تم منذ ليلة الأمس حتى الآن.

أهملت الجزء الخاص بالصندرة وما فيها، أسقطته من روايتي عمدًا مع سبق الإصرار، لا بد أن أكتشف الأمر بنفسي في وقت مناسب.

وبرغم أن اللهفة والفضول والتشوق كادوا يقتلونني، إلا أني كنت مرغمة على انتظار هذا الوقت المناسب الذي يهدأ فيه الجو قليلًا.

في مثل هذه الظروف يمر الوقت ببطء شديد، فالوقت لا يمر أبدًا عندما نريده أن يمر.

عاد عمي ممدوح، وكان لقاءً حميمًا واستثنائيًّا بين شقيقين لم يلتقيا منذ سنوات، طلبت العشاء بالهاتف، وتناولناه في جو دافئ معبق بروائح ندية، حتى حمادة اندمج في هذا الجو وكف عن مشاغباته قليلًا.

وعندما حان الرحيل، واستأذن عمي ليعود إلى الإسماعيلية معتذرًا عن إلحاحي وإلحاح أبي بالمبيت حتى الغد، إذ عليه أن يكون في عمله في الصباح الباكر، وبعد أن جلست مع والدي دقائق أقتنصُها بصعوبة من عمر الزمن البخيل؛ دخل بعدها إلى حجرته لينال قسطًا من النوم والراحة، وبعد أن اطمأن قلبي إلى أن أبي قد أغلق باب حجرته عليه، عندها فقط، أصبح الجو خاليًا ومناسبًا أخيرًا.

٦

على أطراف أصابع قدمي، كراقصة في «بحيرة البجع»، سرت نحو الصندرة.

ظهْرُ مقعد من مقاعد طاولة السفرة مستقر بين قبضتيَّ.

الدهليز مظلم إلا من بعض الضوء الآتي من داخل غرفتي، لا أريد لأبي أن يستيقظ متسائلًا عما أفعله عند الصندرة في مثل هذه الساعة.

شعرت ببعض الخوف دون سبب وأنا أصعد وأفتح المصراعين بمنتهى الحرص، حتى لا يصدر من فعلتي هذه أدنى صوت.

لو لم أكن صحفية لكنت الآن لصة منازل موهوبة!

ها هما الصندوقان (الهدف)، مستقران في جوف الصندرة كقطعتين من «التشكلتس» في فم حوت أزرق!

مددت يديَّ المرتعشتين من فرط الإثارة الممتزجة بالوجل نحوهما، اخترقتُ على ما يبدو نسيج عنكبوت عجوز، قضى عُمرًا مديدًا في هذا الظلام حتى أقض حمادة رقاده المستكين، في جولة من جولاته الشيطانية.

الغبار والمهملات ورائحة السنين القديمة.

أمسكتُ بالصندوق الأول وجذبته نحوي في حرص، حملته على صدري ثم أنزلته على الأرض، وكذا فعلت مع الصندوق الثاني، ثم حملت غنيمتي هذه ـ لم أنسَ الجمة الشقراء وإصبع طلاء الشفاه اللذين ألقيتهما بسرعة في المرَّة السابقة، ولم أنسَ كذلك إغلاق المصراعين وحمل المقعد إلى مكانه الأصلي ـ إلى داخل الغرفة، وأوصدت بابها جيدًا وأنا ألهث.

الآن ينكشف المستور وتظهر الحقيقة!

أخذت أنظر إلى الصندوقين المتربين القابعين فوق الأرض وبجوار السرير، بعينين يكاد يقفز منهما الشغف ليتجسد في صورة مادية مرئية، ولم أطق صبرًا على فتحهما ورؤية ما يحويانه، برغم أني كنت قد كونت فكرة شبحية مسبقة عن المحتوى بالفعل.

بدأت أفرغ ما فيهما، فقط لتتضح الفكرة في رأسي أكثر، وتتأكد أكثر وأكثر.

لقد وجدت كنزًا من المقتنيات النسائية!

فساتين قديمة قصيرة، بعضها يمتد طوله إلى ما فوق الركبة فقط، تدل الصيحات على أنها تعود إلى السبعينيات من القرن العشرين، واسألوا متابعة لا بأس بها لأفلام تلك المرحلة السينمائية مثلي.

ملابس منزلية مبعثرة وسط الفساتين في غير نظام، والغريب أن العثة تركتها سليمة برغم طبقات الغبار المتراكمة فوقها.

أحذية وصنادل نسائية ذات صيحات وألوان غريبة تعود أيضًا إلى السبعينيات. هناك أيضًا جوارب نسائية وحقائب نسائية

مختلفة، وساعة يد لماركة سويسرية معروفة تصلح لكل العصور والأزمنة.

وعن أدوات الزينة فحدث ولا حرج، أشكال وألوان وأطوال عديدة ومختلفة من الشعر المستعار، عشرات الأنواع من طلاء الشفاه وتحديد الرموش والعيون وبودرة الخد وكريمات الأساس وتفتيح لون البشرة، العلب قديمة وتعود إلى نفس الفترة الزمنية تقريبًا، بعضها ما زال محتفظًا بحالته الأولى حتى يومنا هذا.

لن أنسى أيضًا مشابك الشعر والأطواق وبعض قطع الإكسسوار التي تهواها نساء الأرض كلهن منذ عهد الفراعنة أو قبله، كذلك بعض زجاجات العطور الفارغة.

كل المقتنيات تشع برائحة إنسانية مميزة للشخص الذي يقتنيها، ولم تكن هذه الأشياء استثناء للقاعدة.. لا يزال هناك عبق شخصي لم تمحه السنون بعد بممحاتها الضخمة.

عبق أمي، رحمها الله!

كيف عرفت؟!

لن أتحدث عن البداهة، وإنما عن هذه الأوراق المبعثرة في قاع الصندوق الثاني.

قصاصة من الصفحة قبل الأخيرة لجريدة «الأهرام»، تحمل في وضوح نعي السيدة «سعاد خورشيد»، زوجة الدكتور فاروق الجبالي، وسليلة عائلة «خورشيد»، يعود تاريخها إلى شهور قليلة بعد ميلادي.

صور فوتوغرافية متناثرة ذات أحجام مختلفة، كلها بالتدريج

الرمادي، كلها لم أرها من قبل، كلها لأمي في مراحل مختلفة، تبدأ من الثانوية تقريبًا مرورًا بالدراسة الجامعية ورحلة إلى الفيوم ـ هذه بحيرة قارون، أعرفها ـ وأخرى مع أفراد عائلتها و...

يا إلهي، يا للمصادفات الغريبة!

انظروا إلى هذه الصورة جيدًا، إنها عند الشلالات بالفيوم، مجموعة من طلبة الجامعة في رحلة، هذه أمي في الوسط، دعكم من الصديقة القبيحة الباسمة إلى يمينها، وأمعنوا النظر جيدًا في الواقفة على اليسار، فاردة ذراعها على كتف أمي.

هي بنفسها، السيدة «ألفت همَّام»، رئيسة تحرير الجريدة التي تنشر تحقيقاتي، لكنها بطبيعة الحال أصغر سنًّا وأكثر نضارة وحيوية وبلا مناظير دقيقة.

هل كانت صديقة لأمي في الجامعة؟!

كيف لم أعرف من قبل؟!

لماذا لم يخبرني أحد، هي أو أبي؟!

حتى متى سأظل طفلة يخفون عنها الحقائق، حتى متى؟!

أوراق أخرى كثيرة، تحاليل وتقارير طبية من مستشفيات ومعامل مختلفة تكتظ بطلاسم لاتينية أعجز عن سبر أغوارها، البطاقة الشخصية لأمي، جواز السفر الخالي من التأشيرات تمامًا، كل شيء قد تم تكديسه داخل الصندوقين بمنتهى السرعة والإهمال، كأنما أريد التخلص من هذه الأشياء، أو كأنما كان الأمر متعلقًا بـ...

إخفاء جريمة!

عمت الفوضى أنحاء الغرفة التي كنت قد رتبتها بعدما فعله بها

حمادة، الأشياء تبعثرت فوق الأرض والسرير، والتراب غطى كل الأنحاء.

لكني لم أنتبه لهذا في غمار الفكرة التي راودتني فجأة.

للدقة، الرغبة التي اجتاحتني فجأة.

دافع خفي وجدتني أستجيب له على الفور دون تفكير، ودون تردد.

دافع أقوى مني فلم أستطع له رفضًا.

وهكذا بدلت ملابسي المنزلية على الفور، لأرتدي فستانًا من فساتين أمي.

مقاسه مناسب لي تمامًا، كأنه قد صُنع من أجلي خصيصًا.

ارتديت أيضًا صندلًا ذا كعب مرتفع وضخم، ووضعت ساعة اليد حول معصمي، وثبتُّ جمة كستنائية ذات شعر طويل جدًّا فوق رأسي، ثم انتقيت عددًا من أدوات الزينة المناسبة لما أرتدي، ووقفت أتزين أمام المرآة التي ثبتُّ صورة أمي في حافتها.

جنون، أليس كذلك؟!

المثير أننا دومًا نمارس الجنون دون أن نشعر أنه جنون!

مضى وقت لا أذكره وأنا منهمكة فيما أفعل، وعندما انتهيت وقفت أتأمل نفسي في المرآة مقارنة مظهري بصورة أمي المواجهة لي.

كانت أجمل مني، لا أجد غضاضة في الاعتراف بهذا.

كانت تشع سحرًا وجاذبية غريبين، لكن.. هل كان السر يكمن في عينيها؟ رموشها الطويلة؟ ابتسامتها الكاشفة عن صفين من اللؤلؤ؟ وجهها المنير؟

هو سر، لذا فما من تفسير له.

بقيت خطوة أخيرة، أمسكت بمشبك للشعر وغرسته في شلال الشعر المستعار على الناحية اليمنى، وأمسكت بمشبك آخر لأغرسه على الناحية اليسرى حتى أبدو مثل «ميرفت أمين» في ذلك الفيلم الذي لا أذكر اسمه الآن، لكن...

بحركة خاطئة جرح دبوس المشبك إبهامي اليسرى، وسال الدم فوق الشعر المستعار.

فزعت، وسرت كهرباء الألم داخل نخاعي الشوكي كعمود من النار، فردت إبهامي وثنيت بقية الأصابع، محدقة في الأولى بذهول لم أدرِ له مصدرًا أو مبررًا.

الدم يتدفق من الجرح كنافورة، يغرق يدي والفستان والساعة والحقيبة، ويقطر فوق الصندل ذي الكعب المرتفع.

دم غزير غزير.

تراجعت كأني أرى وحشًا من وحوش الفضاء، تراجعت خطوات للخلف وأنا ألهث شهيقًا وزفيرًا، بينما أمي ترمقني من الصورة المثبتة في جانب المرآة.

كدت أستنجد بها، أنادي باسمها.

ـ ماما!

وواصلت التراجع، فلم يكن هناك مفر من السقوط.

تعثرت في أحد الصندوقين، وسقطت على ظهري فاصطدم رأسي بحافة السرير الخشبية البارزة.

وطبعًا غبت عن الوعي، بينما استمر الجرح في إبهامي ينزف، وينزف، وينزف.

آخر ما رأيته قبل الغياب كان وجه أمي، ينظر إليَّ باسمًا من حافة المرآة.

فابتسمت.

* * *

محيط الظلام الأسود، الممتد من الأزل إلى الأزل.

ظلام أبدي.. بكر.. دامس.

ومظلم.

الظلام الذي منه جئنا وإليه نعود.

المعلَّقة به نجوم وسدوم ومجرات وأكوان.

المتفاني في نفسه.

والسابح في مجراه.

كنتُ روحًا هائمة لم تضل السبيل.

تطوي المسافات الشاسعة في أقل من لمح البصيرة.

في اللازمن لو جاز التعبير.

لا أرى نفسي، وإنما أشعر بها وأوقن بوجودها.

شفافة كنسمة صيف.

خفيفة كلا شيء.

وسريعة كنيزك.

بقعة ضوء تقترب، وأقترب.

أصبح هناك فجأة.

أرى كل شيء، ولا يراني أحد.

امرأة تصرخ وقد غطت ساقيها فوق مقعد كبير.

تصرخ في ألم رهيب.

يشبه ألم المخاض.

أو هو ألم المخاض بالفعل!

أعرفها، لكنها أبدًا لا تعرفني.

الطبيب بملابس الجراحة الخضراء يقف في ركن حجرة الولادة، يدس يده اليسرى في قفاز مطاطي معقم.

ثم يثبت الكمامة على أنفه.

ويستعد للجريمة!

أعرفه، لكنه أبدًا لن يعرفني.

الممرضات تركضن هنا وهناك، والمرأة تواصل صراخها المتألم الرهيب.

عرق ودماء، والسائل الأمنيوني يغرق الأرضية المبلطة باللون الأبيض.

ـ فاروق.. سأموت يا فاروق!

الطبيب يهتف بها وهو يراجع أدواته فوق المنضدة في هدوء:

ـ تماسكي يا سعاد، لم يبقَ إلا القليل.

ثم يلتفت إليها قابضًا على كلابة جراحية، ومنها يقترب.

ـ كلا.

تصرخ المرأة في سعار، وتكاد تقفز من فوق المقعد المقيدة إليه.

ـ ابتعد، تريد أن تقتلني.. ابتعد.

يتوقف الطبيب حائرًا، يضع راحته على كتفها مهونًا:

ـ اهدئي يا سـ...

ـ ارفع يدك عني، لا أريد هذا الجنين.. لا أريده!

يسقط في يد الطبيب، وتلوح في عينيه نظرة حسرة.

أو تأنيب ضمير.

يميل عليه زميله طبيب التخدير، الذي تلتهم السوالف وجهه:

ـ أحقنها بجرعة مخدرة أخرى؟

الطبيب يتنهد، وبصعوبة يقول:

ـ كلا، أوان الفتح القيصري قد فات، وقد يشكل هذا خطرًا عليها وعلى المولود.

ولا ينسى أن يضيف قبل أن يستدير إليها مجددًا:

ـ أو المولودة.

يقرر الطبيب أن يمارس عمله برغم كل شيء، يجثو على ركبتيه أمام المقعد والمرأة تواصل صياحها الذي تهتز له الجدران الفانية:

ـ كلا.. أبعدوه عني.. سيقتلني.. سيقتلني.

وتصيح مجددًا، ليكاد قلبي ينفطر.

لم أبكِ، فالأرواح الهائمة لا تعرف بكاءً.

ولا تعرف ملح الدموع.

ثم يشق المكان صراخ طفل ينزلق إلى الحياة.

تموت الصرخات المحتضرة في حنجرة المرأة المتعبة، فتسقط رأسها جانبًا.

يحمل الطبيب الجنين، تتألق في عينيه الغبطة وهو يضربه على ظهره ضربات خفيفة، أشعر بها على ظهري أنا.

وخلف حاجز زجاجي كبير، وقفت امرأة أخرى تراقب من خلف الخصاص المسدلة.

أعرفها، ولا أريد أبدًا أن تعرفني!

(أصغر سنًّا وأكثر نضارة وحيوية وبلا مناظير دقيقة!).

ـ طفلة؟

قالت، وهي تضم قبضتها على صدرها.

ـ نسرين.

همست، فاردة أصابع يدها الأخرى على الخصاص.

ـ سأسميها نسرين.

وعاد الظلام.

أبديًّا.. بكرًا.. دامسًا.

ومظلمًا.

٧

أيقظني رنين الهاتف الملحاح.

نائمة كنت في سريري، الغطاء موضوع فوقي بعناية، وضوء الحجرة مطفأ، والغرفة في حالة غريبة من الهدوء والنظام!

كل شيء كان مبعثرًا أصبح مكدسًا داخل الصندوقين إياهما، والصندوقان موضوعان أسفل الخوان.

يا للغرابة!

آخر ما أذكره هو رأسي المصطدم بحافة السرير، وأنا مرتدية ملابس أمي القديمة؛ حتى هذه لم أعد أرتديها، وهأنذا في ملابسي المنزلية الأولى، أغالب ذهولي وأحاول اعتصار ذهني في محاولة بائسة للتذكر.

ماذا حدث؟

لا أذكر أنني نهضت وفعلت كل هذا، برغم أن هذا هو الحل الوحيد المعقول.

أو لنقل: المقبول.

تبًّا، جرس الهاتف ما زال يرن في إلحاح بجواري.

ـ آلو.

رفعت السماعة وقلتها، وجدت إبهامي اليسرى محاطة بضمادة قماشية تشربت الدماء من الجرح الذي لم يعد يؤلمني!

شيء ما في صوتي استغربته، لكني لم ألق بالًا

ـ أما زلت نائمة من البارحة أيتها الكسول؟

ـ فا... أعني أبي؟

شيء ما في أسلوبي استغربتُه، لكني لم ألق بالًا

ـ أجل، خرجت دون أن أوقظك حتى تنالي كفايتك من النوم، يبدو أنك سهرت كثيرًا ليلة أمس.

سمعت أبي يقولها ضاحكًا، ولم أرد سوى بكلمة مقتضبة واحدة:

ـ يعني!

نظرت إلى الساعة المنتصبة إلى جوار الهاتف، إنها تشير لما بعد الثامنة صباحًا بدقائق.

ـ ما بك يا حبيبتي؟ أأنت على ما يرام؟

لا بد أنه لاحظ تغيرًا ما هو الآخر، لكن هذا ليس وقته بالمرَّة.

ـ أجل، لا تخشَ شيئًا.

قلتها وأنا أتثاءب، تُرى هل أصبحت رصينة أكثر من اللازم أم أن هذا يُخيَّل إليَّ فقط؟

ـ أتمنى هذا، فربما لن أراك قبل أسبوع من الآن.

ـ ولِمَ؟!

هل حقًّا كنت غير مهتمة كما أوحت لهجتي وأنا أسأله؟

أشك!

ـ القائمة لديَّ اليوم حافلة بالعمليات الجراحية، وفي الخامسة من فجر الغد سأستقل الطائرة المتجهة إلى «مونتريال» لحضور مؤتمر دعوني إليه اليوم فقط.

صمت، أدهشني أكثر مما أدهشه!

ـ أعلم أنك قد تغضبين مني، ولكن.. لم أستطع الاعتذار.

في هذه الأحوال أعاتبه وأتوعده بالخصام والقطيعة إن لم أره قبل أن يسافر، وترقرق عيناي بالدمع المحبوس فيهما، لكني لم أفعل هذه المرَّة.

وقد أدهشه هذا لا ريب.

ـ لا تخف عليَّ، صحبتك السلامة.

لكنه أدهشني أكثر!

أتاني صمته عبر السماعة للحظات، قبل أن يتنحنح مدافعًا عن نفسه من اتهام لم أوجهه إليه، ولم أكن أفكر في أن أفعل:

ـ لقد قبَّلتك في جبهتك قبل أن أغادر المنزل منذ أقل من الساعة، ألم تشعري بي؟

هل يمكن أن يكون هو مَن حملني إلى السرير ورتب الحجرة؟ محتمل، لكني غير مقتنعة، لو فعل لقال الآن، وربما لكان أيقظني وقتها في هلع.

ـ كلا، إطلاقًا.

صدمه ردي بالتأكيد كما حدث من قبل، لم يكن يتوقع مني كل هذا البرود وعدم الاكتراث المغلفين بالرصانة، ولم أكن أنا أيضًا أتوقع.

ـ ليكن، أراك على خير.

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

وأغلقت السماعة بمنتهى الفظاظة دون حتى أن أسمع عبارته.

ما هذا الذي يحدث لي؟!

ليحدث ما يحدث، فلست مهتمة.

نظرت إلى المرآة، ما زالت صورة أمي معلقة في حافتها، تنظر نحوي باستمرار أينما ذهبت، كأنها «الجيوكندا»!

شيء ما في نظراتي استغربته، لكني لم ألق بالًا

شيء ما له علاقة بالحدة، أو الشدة، أو الصرامة، أو القسوة، أو... أو... إلى آخر هذه المترادفات.

قفزت من فوق السرير بنشاط جم قلما توافر في شخصي الكسول، فلديَّ يوم حافل حقًّا، لكني توقفتُ للحظة ناظرة إلى نفسي مرَّة أخرى في فضة المرآة.

حتى ملامحي نفسها، شيء ما فيها بدأ يتغير، لكني لم ألق بالًا

كيف؟! وما هو هذا الشيء؟!

لا أدري ماذا أقول.

اسألوا صورة أمي عند حافة المرآة.

المحدقة بي منذ ليلة أمس.

* *

حول نفس منضدة أمس اجتمعنا، أنا وشيماء ومروة، وتغيبت رحاب عنا قليلًا لأمر ما.

دار حديث بين شيماء ومروة، لم أسمع منه كلمة، ونأيت بنفسي عن المشاركة فيه ترفعًا، فقد كنت غارقة في عالم آخر بعيد.

وجاءت رحاب أخيرًا، فوزعت عدة نسخ من الوريقات على كل منا.

ـ هذه آخر ملازم الدكتور شحاتة، يقولون إن امتحانه لن يخرج عنها أبدًا.

مطَّت مروة شفتيها، ورفعت الوريقات إلى عينيها لتقول:

ـ ومَن يضمن لنا هذا؟

هزت شيماء كتفيها وتطوعت بالإجابة:

ـ هذا ما حدث في العام الماضي.

كادت رحاب تقول شيئًا، لكني سارعت بسؤالها في لهجة أقل ما توصف به أنها جافة:

ـ كم الحساب؟

رفعوا إليَّ أعينًا مفعمة بنظرات الدهشة والاستغراب؛ لا أقول الاستنكار أو الاستهجان، وسألتني رحاب نافضة رأسها:

ـ أي حساب؟!

أجبتها ببساطة:

ـ حساب هذه الوريقات.

لعلها ظنتني أمزح، فقالت ضاحكة:

ـ لا عليك يا عزيزتي، ما بين الخيِّرين حساب.

قلت وقد اتخذت سمتًا فظيعًا:

ـ من فضلك أجيبيني!

نظرت رحاب إلى الأخريين في حيرة، فسألتني مروة في حذر:

ـ هل تتحدثين بجدية يا نسرين؟

قلت ملوحة بسبابتي:

ـ أنا لا أمزح أبدًا في هذه الأمور.

قالت شيماء في لهجة هجومية:

ـ ما بكِ يا نسرين؟ تبدين في غير طبيعتك منذ بدأ اليوم!

وضعت ساقًا فوق أخرى وقلت:

ـ هناك مبادئ أحب دومًا أن أسير وفقها!

بنفس اللهجة الهجومية هتفت بي شيماء:

ـ لعلك نسيت إذن أننا قد اتفقنا على أن يتولى كل منا تصوير النسخ من الملازم والمذكرات دوريًّا، وأن هذه المرَّة كان الدور على رحاب!

حقًّا؟! متى تم ذلك؟!

كدت أسأل، لكني أحجمت حتى لا أؤكد لهن أنني في غير طبيعتي، وكاد الحرج يلتهم وجهي فآثرت الصمت ولم أجرؤ على النظر في وجه أي منهن.

ران الصمت بيننا حتى قطعته شيماء بقولها:

ـ لست على ما يرام أبدًا يا نسرين!

وأيدتها مروة قائلة:

ـ ربما لم تنامي جيدًا البارحة.

قلت وأنا لا أدري ما سر غرابة أطواري؛ لم أكن منتبهة حتى لهذه الغرابة:

ـ بل نمت طويلًا.. وبعمق!

نهضت رحاب وقد قررت أن تكسر من تجهم المشهد بأي طريقة:

ـ ربما إذن بسبب دعوتك لنا بالأمس.

ثم تابعت وهي تنهضني من جلستي:

ـ هلمي معي، سأدعوكن أنا اليوم قبل أن تصاب هذه المسكينة بالاكتئاب!

نهضت معها على مضض، وسرنا نحو منضدة البيع، لكنني في منتصف الطريق ـ ربما بفعل الشرود أو لعله ترتيب قدري بحت ـ اصطدمت بشخص ما.

ـ أنا آسفة!

جميلة عباس، وكنت أنا المتأسفة.

سقط كوب الكاركاديه الأحمر القاني من يدها على الأرض، وتناثرت محتوياته كأنها دماء أضحية، وسقط منها أيضا باقي نقودها التي كانت تحملها فانحنت تجمعها، وانحنيت أنا مواصلة أسفي:

ـ لم أكن أقصد أن...

قاطعتني ناظرة إليَّ بعينين لاح سوادهما فاحمًا وسط بياضهما الناصع:

ـ لا عليك.

وكأنها نومتني مغناطيسيًّا، لم أستطع رفع عيني عن عينيها.

لمحتها تبتسم في بهوت، وتلاشت بسمتها لتعاود انحناءها جامعة نقودها المبعثرة.

ـ هيا بنا يا نسرين.

لم أستجب لنداء رحاب على الفور.

عيناي تعلقتا بشيء آخر.

للدقة: بجرح آخر.

ذلك الجرح القطعي على طول إبهام جميلة اليسرى، الذي تبدى في وضوح وهي تجمع النقود المبعثرة فوق الأرض.

صدفة؟!

أشك!

٨

هبطت من سيارة الأجرة هذه المرَّة وأنا أحمل أكياسًا معبأة بالخضراوات الطازجة ومستلزمات البقالة، وتجاوزت عم خضر البوَّاب الجالس أمام مدخل البناية كأمير الزمان، متجاهلة نداءه المفعم بالثقة:

ـ أحمل عنك يا آنسة؟

بعيدًا عن كونها «عزومة مراكبية»، فمهما تغيرت أطواري سأظل أكن مشاعر سوداوية تجاه هذا المخلوق الفضائي الغريب الذي ينفث دخان النارجيلة من أنفه وفمه، والمدعو «العم خضر»!

في المطبخ وضعت الأكياس، وفركت كفي بمنتهى الحماسة استعدادًا للملحمة الكبرى.

قررت اليوم ـ دون سابق إنذار ـ أن أتناول الغداء من صنع هاتين اليدين؛ يديَّ.

بعبارة أخرى أوضح: قررت خوض تجربة المطبخ.

لو قلتها لنفسي بالأمس مقسمة بأغلظ الأيمان أنني سأفعلها لما

صدقت، أنا أمقت المطبخ والوقوف فيه وإعداد الطعام كالجحيم، أعيش على خدمة التوصيل للمنازل التي لولاها لهلكت جوعًا منذ أمد بعيد.

لكنه دافع قوي لم أقدر على مقاومته.

ولم ألق بالًا أيضًا لهذا المنحنى الخطير في مجرى حياتي المعتادة، لم أشعر أصلًا بأن هناك تغيرًا ما، لقد بدأت في غسل الخضراوات وتقطيعها، وتقشير البصل، وإعداد الصلصة فوق النار، وإضافة الماء للأرز المفلفل بحساب، كأنني أجيد هذا الفن ـ فن الطهي ـ وأمارسه منذ عشرات السنين، أو كأنني «أبلة نظيرة» شخصيًّا.

أكثر من هذا، تركت القدور فوق نيران الموقد الهينة لينضج ما فيها على مهل، وفكرت في إزجاء الوقت بسماع بعض الموسيقى.

إلى الركن الخاص بأبي في المكتبة اتجهت، تجاوزت أكوام شرائطي وأسطواناتي الخاصة بعبد الحليم عشقي الأوحد الذي لا ينافس، وانتقيت من مقتنيات أبي شريطًا لأم كلثوم التي أكن لها كل الاحترام، لكني لم تكن أذني قَطُّ مضبوطة على موجتها.

لم أكن أتصور أن أفعلها يومًا، لكنني الآن أضع شريط «كوكب الشرق» داخل المُسجل الكبير القائم في منتصف المكتبة، وعبر السماعات الكبيرة يتصاعد الشدو الرخيم غامرًا أنحاء الشقة وأعماقي بالصفاء والسكينة!

هل رأى الحُب سُكارى مِثلنا كـم بَنينـا مِـن خَيـالٍ حولنـا

عدت إلى المطبخ، واندمجت مع الغناء.

«الأطلال» بالذات هي ما بحثت عنه، شعرت بأن هذه الأغنية

مرتبطة بذكرى ما في حياتي، لكني لم أعرف قَطُّ ما هذه الذكرى، وكعادتي مؤخرًا لم ألق بالًا

إنها أيامي المعتادة وأنا أعيشها كما تعودت أن أعيشها، منذ عشرات السنين!

ومَشينا في طريق مُقمرٍ تشدو الفَرحة فيه قبلَنا

وضعت الأطباق فوق السفرة وأنا أدندن مع «الست» في انسجام خرافي وسلطنة، تصاعد البخار من الأرز والكوسة الغارقة في اللون الأحمر، تناولت الطعام بشهية، وكان تقريبًا أشهى ما تناولت في حياتي.

نتيجة لا تُصدق بالنسبة للمرَّة الأولى، غير أن أحدًا لم يكن ليستطع إقناعي وقتها بأنها كذلك، وأنني لست طباخة ماهرة محترفة تعرف ما تصنع.

ماذا يحدث؟!

لا أعرف بالطبع، ولم يكن بوسعي استنتاج ما يمكن أن تكونوا قد استنتجتموه لحظتها.

وضَحِكنا ضحك طِفلين معًا وعَـدَونـا فسبقنـا ظِـلَّنـا

غسلت الأطباق ونشفتها ورصصتها في نظام، استمتاعي بما أفعل كان عبثيًّا لو فكرت في نفسي قليلًا كنسرين التي أعرفها.

في الغالب كنت وقتها نسرين أخرى فقدت عقلها!

أو...

لعلني لم أكن نسرين أصلًا!

انتهيت جالسة فوق المقعد الهزَّاز، لم أشعل التلفاز وظلت

أم كلثوم تشدو في غير كلل، بينما انهمكت أنا في قراءة الكتاب المصور الكبير الذي ابتعته قبل عودتي: «كيف تعتنين بطفلك في عامه الأول؟».

وبعد انتهاء المقطع السريع من «الأطلال»، وبعد أن هدأت الموسيقى وأصبحت ناعمة خافتة شجية، شعرت بالنعاس يدغدغ جفوني رويدًا رويدًا.

وبالطبع لم أستسلم له كليًّا.

دون قيد أو شرط.

* *

لم يدم الظلام هذه المرَّة أكثر من هنيهة خاطفة.

عاد الضوء بعدها يغمر المكان.

ما زلت جالسة فوق المقعد الهزاز، لكني بلا كيان مادي.

روح هائمة من جديد.

الصالة مختلفة قليلًا.

الحوائط غير مدهونة، وإنما يلتصق فوقها ورق حائط عليه مناظر طبيعية.

المكتبة ليست هي، هناك مكتبة أخرى أصغر حجمًا وأقدم طرازًا.

التلفاز أيضا ليس هو، بل جهاز آخر قديم يعرض حفلًا مسجلًا لأم كلثوم بالأبيض والأسود، وهي تشدو برائعة «الأطلال».

يا حبيبي كُل شيءٍ بِقضاء ما بأيدينا خُلقنا تُعساء

وهناك أريكة أمام التلفاز، تتمدد فوقها امرأة أعرفها جيدًا، لكني لم أرها بهذا البطن المنتفخ من قبل.

يدخل في الكادر رجل أعرفه جيدًا، حاملًا صينية عليها كوب واحد ممتلئ بسائل أحمر:

ـ عصير الرُّمان مفيد لك جدًّا في الأشهر الأخيرة يا عزيزتي.

ليس كما أراه دائمًا، الشعر والسوالف أطول والتجاعيد غير موجودة.

ـ هل تعتقد أنه سيكون ولدًا أم بنتًا يا فاروق؟

تسأله وهي تريح رأسها على كتفه بعد أن جلس، فيمد يده مناولًا إياها الكوب؛ وهو يجيب باسمًا:

ـ ليكن ما يكون.. المهم أنه سيكون رابطة أخرى تجمع بيننا.

تتناول الكوب وترشف منه في تكاسل، بينما يتابع هو شاخصًا ببصره نحو المجهول:

ـ يقولون إنه خلال سنوات قليلة سيمكن الكشف عن جنس المولود باستخدام الأشعة فوق الصوتية، لست متخصصًا في أمراض النساء والتوليد كما تعلمين لكنه سيكون فتحًا طبيًّا آخر يُسجل في التاريخ.

تقول في دلال:

ـ هذا لا يمنع أنك ستتولى عملية الولادة بنفسك.

ـ بالتأكيد.

تتغير لهجتها ونظرتها وملامحها فجأة وهي تقول:

ـ لكني ما زلت خائفة.

ربما تجمعُنا أقدارُنا ذات يومٍ بعدما عز اللقاء

يمسك بيدها في حنان وهو يهمس:

ـ مِمَّ يا سعاد؟

تنظر إليه نظرة يفهم منها الكثير، فيقول معاتبًا في لطف:

ـ حاولي نسيان الماضي من أجلي يا حبيبتي.

تقول في وجل:

ـ لا أستطيع.. خياله يطاردني في كل وقت ومكان.

يقول وهو يضغط بأصابعه على كفها:

ـ دعينا نتجاوز هذه النقطة، ونفكر في المستقبل.

تنحدر عبرة من مقلتها وهي تقول في ألم تكابده:

ـ لا أتصور أنني فعلت ذلك يا فاروق!

يمد يده ويمسح العبرة.. يقول مهونًا:

ـ لم تفعلي شيئًا، هذا قضاء وقدر.

تنحدر عبرة أخرى، وتقول في إصرار:

ـ بل هو خطئي أنا، أنا الجانية الوحيدة.

يقول شادًّا من أزرها:

ـ قدَّر الله وما شاء فعل.

ـ لن أُسامح نفسي أبدًا.

ـ أنا سامحتك، وهو أيضًا.. كوني واثقة من هذا.

فإذا أنكر خِـلٌّ خِلَّـهُ وتلاقينا لِقاء الغرباء

تصمت المرأة الحزينة قليلًا، ثم تقول محدقة في وجهه:

ـ لماذا إذن أقرأ غير هذا في عينيك أحيانًا؟

يقبل كفها في حب، ويجيبها:

ـ مشاعرك تخدعك كالمعتاد.

ثم ينهض منحيًا إياها عنه في هون، ويُغيِّر الموضوع قائلًا:

ـ أكاد أموت جوعًا، ألن تُعدي لنا العشاء بيديك مثلما يحدث كل يوم؟

تجيبه وهي تعتدل:

ـ العشاء جاهز، لكننا ننتظر ضيفًا.

ـ مَن؟

ـ صديقتي ألفت، دعوتها اليوم لتشاركنا المائدة.

ومَضى كُلٌّ إلى غايته لا تقل شِئنا، فإن الحظَّ شاء

ـ لا بأس.

وانحدرت عبرة أخرى، من عيني أنا هذه المرَّة!

* *

لماذا لم أعد أصحو مؤخرًا إلا على رنين الهاتف الملحاح؟

نمت طويلًا من جديد، الغروب ظاهر من زجاج الشرفة الموصدة.

تُرى من هذه؟

رفعت السماعة قائلة وأنا أمط الكلمة كما لم أعتد من قبل:

ـ آلو...

ـ نسرين؟

قلت وقد تحوَّل صوتي إلى صحراء جافة قاحلة:

ـ أهلًا ألـفـ... مدام ألفت!

لم تلاحظ من البداية الجفاء الذي أتحدث به، ينقص هذه الحيزبون الكثير من دقة الملاحظة.

ـ هل تذاكرين؟

قلت:

ـ كلا.

ـ ماذا تفعلين إذن؟

ـ لا شيء، لا أفعل شيئًا!

لم تلاحظ حتى هذا الحد، فقالت محاولة كعادتها أن تتظاهر بالأمومة:

ـ جيد، أردت أن أعرض عليك الحضور اليوم لاجتماع مجلس تحرير الجريدة.. حاولي ألا تتأخري إذ سيبدأ الاجتماع خلال دقائق.

ـ لماذا؟

سألت في تحد وحدة، فصمتت للحظة محاولة فهم السؤال ومغزاه، ثم سألتني بدورها:

ـ لماذا ماذا؟!

ـ لماذا أحضر اجتماعًا كهذا؟

قالت وقد استعادت دقة ملاحظتها أخيرًا:

ـ أهذا سؤال؟! لتستزيدي من الخبرة الصحفية بالطبع.

ـ ولماذا أنا بالذات؟

هتفت بي منفعلة:

ـ ماذا دهاكِ يا فتاة؟! ظننت أني أسدي لك خدمة!

قلتُ بلهجة تحمل مغزى مخالفًا لما تبدو عليه:

ـ أنت تفعلين هذا منذ زمن بعيد، وعلى خير وجه.

كل لبيب بالإشارة يفهم، لكن هذه الشمطاء لا لبَّ لها، فقالت في النهاية في حسم:

ـ كلمة واحدة من فضلك يا نسرين، هل ستأتين أم لا؟

ـ لا

وأغلقت السماعة في عنف دون حتى أن أقول كلمة وداع.

منتهى قلة الذوق واللياقة، لكنه أقل ما تستحق.

ظللت ألهث للحظات انفعالًا، قبل أن أنتبه لأمر مفزع.. جهاز التلفاز يعمل!

لست أمزح، ها هو ذا مفتوح على قناتي الإخبارية المفضلة، وهي تعرض حلقة الأمس من البرنامج الذي يتحدث عن تحضير الأرواح، مع كلمة «إعادة» في أعلى الشاشة.

لم يلفت هذا انتباهي بقدر ما أفزعتني حقيقة ما يحدث.

نعم، بدأت ألقي بالًا أخيرًا.

هناك شيء ما يحدث لي، ومِن حولي.

أنا واثقة أنني قد غفوت وهو مغلق، وأنني لم أنهض لتشغيله.

هل أمشي في أثناء النوم؟

تفسير أنيق ومريح لكل شيء، خصوصًا نهوضي في فراشي هذا الصباح لأجد كل شيء من حولي مرتبًا في عناية.

لكنه لا يفسر هذه الرؤى الغريبة، وهذا التغير المريب في تصرفاتي و...

فزعت أكثر عندما انتبهت لأمر آخر.

سامي تيمور، خبير الروحانيات الذي يتحدث بهدوء على الشاشة.

انظروا معي جيدًا إليه وهو يلوح بيده.

دققوا في يده اليسرى.

إبهامه اليسرى.

الجرح القطعي الطويل الملتئم!

كلا، الأمر يتجاوز حيز الصدفة!

يتجاوزه بمراحل!

لا شك أن شيئًا ما يحدث..

شيئًا رهيبًا.. رهيبًا.

فزعت مرَّة أخرى، عندما رن جرس الباب.

رباه.. ما هذا الذي يحدث؟!

ما هذا الذي يحدث؟!

مَن يمكن أن يكون الآن؟

مَن؟

ابتلعت ريقي، وتجاوزت هلعي، وسرت ببطء في الظلام المخيم نحو الباب:

ـ مَن؟

قلتها في مرحلة متوسطة بين الهتاف والخفوت، ولم يرد أحد.

كأن هناك مؤامرة لإرعابي يشترك فيها أهل الأرض جميعًا!

نظرت في العين السحرية، ورأيت الطارق الواقف في اعتداد أمام الباب.

وبالإضافة للرعب، شعرت بالذهول!

فتحت الباب مسرعة وأنا أنظر إلى الوجه الشاحب والعينين الخضراوين المنتفختين، وهمست:

ـ نهى؟!

ابتسمت الأخيرة وهي تقول هازة رأسها:

ـ أجل.. مفاجأة غير متوقعة، أليس كذلك؟

٩

ـ بلى.

نطقت بها مفغورة الفيه، كأني مُغيبة.

ـ هي كذلك!

كان من المفترض أن أثور في وجهها، أن أعنفها على ما فعلت مع ابن عمي ظهر البارحة، أن أقابلها بفتور على الأقل كما قابلتني وأحرجتني.. لكني نسيت كل شيء.

عقلي صفحة بيضاء، وكأنها نوَّمتني مغناطيسيًّا، لم أستطع رفع عيني عن عينيها.

ـ رحبي بي كما يليق بك أن تفعلي يا أختاه.

تألقت عيناها وهي تتكلم باسمة، وتنحيت جانبًا لتدخل هي دون أن أنبس ببنت شفة.

ـ لقد جئت إليك بناءً على طلب منه!

لم أدرِ كيف أغلقت الباب، ولا كيف جلسنا في الصالة، ولا كيف سألتها باقتضاب:

ـ مَن؟

أجابتني وبسمتها تسطع بالغموض:

ـ مَن؟ وأين؟ وكيف؟ وهل؟ ولماذا؟ طوفان هادر، وسيل لا ينقطع من الأسئلة التافهة الحمقاء.

وأردفت مقتربة في جلستها مني:

ـ آه يا أختاه، ليت الإجابات تستحق شيئًا من هذا العناء.

لسبب لا أدريه شعرت أنها تعرف ما يشفي غليل فضولي، ونهم تساؤلاتي، ولسبب لا أدريه تمنيت أن تظل بصحبتي إلى الأبد، لتحميني من المجهول.

أردت أن أسألها آلاف الأسئلة، لكن لم يند عني سوى:

ـ ماذا تريدين مني؟

أجابت وهي تلمس وجهي بأطراف أصابعها الطويلة، كأنها تداعب رضيعًا في مهده:

ـ تذبل زهرة العمر، ويذوي عنفوان الجسد، وتبقى الأرواح وحدها معلَّقة في سماوات الكون الشاسع؛ في انتظار من يدعوها للحضور.

تحضير الأرواح مرَّة أخرى؟! هكذا ساءلت نفسي وجزء في داخلي يستعيد ذكريات بعيدة عن فتاة بلهاء تُدعى «نسرين الجبالي».

وعن طبيبة شابة تسكن بجواري هي البلاهة نفسها تُدعى «نهى».

ـ لست أفهم.

قلتها في براءة تليق بطفلة في الحضانة، فتراجعت نهى بظهرها إلى الوراء وقالت:

ـ بل تفهمين، لكنك عاجزة عن التصديق.

فقط لو حدثتني بصراحة!

ـ تصديق ماذا؟

سألتُ بفضول تلميذة في الابتدائية، فقالت دون أن يتلاشى من حديثها الغموض:

ـ لقد رأيت كل شيء في منزلي وفهمته، قبل ساعات معدودة من دخولك في زمرتنا.

أردت أن أسألها مجددًا كأنني أطارد الحقيقة في عباراتها المبهمة، لكنها سبقتني مردفة وهي تشيح بيدها:

ـ آه، يا لغبائي.. كان لا بد أن أعرف أن كل شيء مرتب، ومحسوب بدقة.

سألتها في عناد مراهقة:

ـ عمَّ تتحدثين؟

تنهدت، ثم قالت في صبر كأنها تجاريني:

ـ الشموع.

ألا ينقطع عندكم التيار أبدًا؟!

ـ والجماجم.

أنتِ طبيبة، صحيح أنك تخرَّجت منذ مدة؛ لكن الأطباء لديهم المبررات دائمًا لاستخدام بقايا البشر الفانين.

ـ والكتاب العتيق.

ربما كانت هواية، أعرف صديقة تهوى جمع علب السجائر القديمة برغم أنها لا تدخن.

ـ ولوح «الويجا».

هنا لم أجد تعليقًا مناسبًا في أعماقي، فلذت بالسكينة؛ قبل أن أقول بحكمة امرأة ناضجة صقلتها تجارب السنين:

ـ أنت تحضرين الأرواح إذن!

لم أتوقع قَطُّ أن يكون قولي طريفًا إلى الحد الذي يُضحكها، في ظروف أخرى كان الضيق ليقتلني كمدًا، لكني الآن متبلدة المشاعر تمامًا، كقطعة من الثلج في «الإسكيمو».

ـ عذرًا يا أختاه، لم أقصد إهانة ولكن...

تمالكت نفسها أخيرًا.

ـ مقاومتك للحقيقة البادية أمامك كشمس النهار تدهشني حقًّا.

ـ أية حقيقة؟!

استرخت في جلستها وقالت هازة كتفيها في تسليم.

ـ سأقص عليك ما حدث معي، أنت الآن شقيقتي ويحق لك معرفة كل شيء عني.

ماذا تعني؟!

متى أصبحنا شقيقتين؟!

سألتني «نسرين الجبالي» في داخلي، بينما انطلقت نهى تقول، ولسانها يقطر بلذة التذكر.

ـ مات أبي منذ سنين بعيدة.. تركني وأمي وميراثًا معقولًا يفي على الأقل بمعيشتي في العاصمة وبمستلزمات دراستي الطبية الباهظة أحيانًا.. ذهب وكنت في أمس الحاجة إليه، للمسة حنان من يديه أو لحضنه الدافئ الآمن.. كثيرًا ما كنت أتمنى وجوده

لأتحدث معه، لأستشيره على الأقل في أمور لا يمكن أن أستشير فيها غيره.. كنت أتمنى لو كان موجودًا في أثناء خطبتي الأولى، إذ لربما نبهني لأوجه النقص في الرجل اللامع من الخارج، الذي يلتهمه دود العفن من الداخل، والذي تركني في منتصف الطريق بمنتهى القسوة والوضاعة والدونية.. ربما أيضًا رأى الأمر على حقيقته العارية ـ بخبرته العريضة ورجاحة عقله كرجل ـ منذ البداية، ومنع عني الصدمة النفسية الرهيبة التي تعرضت لها؛ أقول ربما.. لكم تمنيت أيضا أن يكون بجوار أمي المسكينة والمرض يفترسها بلا رحمة في أيامها الأخيرة.. قبل أن تلاقي هي الأخرى وجه ربها، وأُصبح وحيدة في هذه الدنيا الواسعة، لا أحد لي ولا أنا لأحد!

تنهدت، ولم يبدُ على وجهها أي أثر للألم وهي تتابع:

ـ منذ ماتت أمي وأنا في جحيم ملتهب، فقد كانت آخر سبب يربطني بالحياة.. مؤمنة أنا بالقضاء والقدر، هذا ليس مجالًا للنقاش، ولعل إيماني هذا هو ما دعاني للتراجع عن فكرة الانتحار، ودفعني لطريق آخر مليء بالزهور والأشواك؛ أعني التفكير في محاولة الاتصال بروح أمي.

وفرقعت بإصبعيها فجأة.

ـ جاءتني الفكرة في لحظة إلهام نادرة منذ عدة أشهر، ومن يومها وأنا أقرأ وأبحث في هذا الموضوع بشغف واندفاع.. قرأت تلالًا من الكتب، وبحثت في كل زاوية بشبكة الإنترنت، وجرَّبت الطرق الشهيرة مثل السلة والبلورة والبندول و«الويجا»، وهبطت

إلى العالم السفلي الرهيب الممتلئ بالوسطاء الأفاكين والسحرة الدجالين والمشعوذين. استهلكت أغلب ما تبقَّى من ميراث أبي ولم ينتج شيء عما فعلت، حتى وجدت النسخة الأصلية من الكتاب الذي رأيته لديَّ: «مفتاح الملك سليمان». كلفني صدفة وثروة، لكني كنت واثقة أنني سأجد ضالتي بين دفتيه. جلست أيامًا أفك طلاسمه وأترجم ما فيه إلى خطوات تنفيذية، فهذه الكتب تحاول أن تجعل المسألة معقدة جدًّا وغير مفهومة بالنسبة للهواة.. ووجدت في النهاية طريقة عبقرية وصفها الكتاب بمنتهى الوضوح، تعتمد على لوح «الويجا» والشموع والبخور والجماجم.

ثم أشارت إلى الجدار العريض الذي يفصل بين شقتي وشقتها، وللغرابة التي لم أشعر بها وقتها تلاشى الحائط، ورأيت شقة نهى من الداخل بذوقها «الباروكي» وفوضاها العارمة، ورأيت أيضًا نهى جالسة حول الطاولة المستديرة، برغم أنها ما زالت تجلس بجواري!

كأني أتابع مقطعًا شيقًا من فيلم سينمائي!

ـ وجاء يوم التنفيذ، حرصت على الدقة في كل شيء.. وكنت وحدي.

أراها تجلس أمام اللوح، شاحبة ومنتفخة العينين كما هي الآن، وحولها على أطراف المنضدة، أمام المقاعد الثلاثة الشاغرة، ثلاث جماجم، وضِعت في محاجرها شموع بألوان مختلفة، بينما يفوح دخان البخور من مكان ما، وربما أكثر من مكان.

ـ حاولت، وحاولت، وحاولت.

أراها وأسمعها تتمتم بكلمات ما، تغلق عينيها وتحاول تركيز ذهنها فيما تفعل، تحرك يديها فوق مؤشر لوح «الويجا» المعدني ببطء ونعومة في حنق، تنتزع يداها المؤشر المعدني وتضغط عليه قبضتاها في انتظار رسالة أمها، تحاول، وتحاول، وتحاول، ولكن...

ـ فشلت كل المحاولات.

أراها تفتح عينيها فجأة، يبرز جانبا فكيها في حنق، تنتزع يداها المؤشر المعدني وتضغط عليه قبضتاها في قوة حتى...

ـ جُرحتُ، وسال الدم من يدي.

يجرح المؤشر إبهامها اليسرى، وتتناثر خيوط الدم على اللوح والجماجم والمنضدة.

ـ وهنا...

فجأة تتطاير الستائر، ويأخذ المصباح الخافت المعلَّق على الحائط في الإضاءة الشديدة والخفوت الشديد بالتبادل، وتتراقص الشعلات فوق هامات الشموع، وتبدو الجماجم كأنها تضحك.

تفزع نهى حتى الموت، لكنها تتمالك نفسها في فرحة عندما يتحرك المؤشر بين يديها بكل سهولة وسلاسة.

ـ حضرت روح أمي، وكلمتني طوال ليلتها عبر لوح «الويجا».

وهنا عاد الحائط يفصل بيننا وبين المشهد، ونظرت إلى نهى التي ابتسمت من جديد وقد ازدادت غموضا وهي تقول:

ـ عندها، وعندها فقط؛ بعد أن سال الدم من جرح إبهامي اليسرى أصبحت واحدة من «إخوة الدم»!

ربما لم أسمع عبارتها الأخيرة، وربما سمعتها لكني لم أدركها.

لقد كانت «نسرين الجبالي» في داخلي تحاول فهم التشابه بين ما حدث مع نهى وما حدث لي.

وقد أفزعتني استنتاجاتها بحق!

رباه، هل تقمصت روح «سعاد خورشيد» جسد ابنتها نسرين؛ أنا؟!

هذا هو التفسير الأنسب لكل ما حدث ويحدث.

لقد كنت أرتدي ملابسها وأضع زينتها عندما سال دمي بطريق الخطأ فوق أشيائها، فحضرت روحها وتقمصتني، وقامت بترتيب الحجرة وتغيير ملابسي وإيداعي سريري كما تفعل أي أم محبة لابنتها الوحيدة!

أكثر من هذا، لست أنا التي طهوت طعام اليوم، ولا أنا التي انسجمت مع «أم كلثوم»، ولا أنا التي نسيت اتفاقي مع صديقاتي، ولا أنا التي عاملت السيدة «ألفت» بفظاظة، ولا أنا التي تجمدت مشاعري، إنما هي...

أمي؛ سعاد خورشيد!

ثم، هذه الأحلام والرؤى...

يا للرعب ويا للغرابة!

ـ مَن؟!

سألتها مقطبة وقد اصطدمت الكلمتان الأخيرتان اللتان قالتهما بأذني، فقطعتا حبل أفكاري الممتد من الفراغ إلى العدم.

ـ عن «إخوة الدم» أحدثك يا أختاه.

ـ مَن هؤلاء؟!

سألتُ وقد دارت الدنيا من حولي حول محور هو أنا، وأجابتني بسؤال:

ـ تسألين عنهم وأنتِ منهم؟!

سألتها من جديد، وقد بدأت أشعر بانفراط عقد أعصابي المتماسكة:

ـ مَن هؤلاء؟!

ـ ليكن.. سأساعدك على فتح بوابات عقلك المغلقة.

وأخذت نهى نفسًا عميقًا بعد إذ أغمضت عينيها، ثم قالت وهي تفتحهما لينتشر منهما بريق متألق:

ـ «أُخوَّة الدم» يا أختاه هي رابطة بلا نسب، إنها رابطة أشد وأقوى وأكثر تماسكًا من رابطة الدم.. إن الإخوة موجودون في كل مكان منذ الأزل، وسيظلون حتى نهاية الأزل، لكنكِ لن تستطيعي رؤيتهم ـ برغم وجودهم الدائم من حولك ـ ما لم تكوني منهم، ومنهم الآن أنتِ!

كدت أهتف بها بأنني لا أعرف عمن تتحدث، وأنني لست من هؤلاء المدعوين بـ...

ـ إخوة الدم لا يَختارون، إخوة الدم يُختارون.. وحده الدم يختارهم!

قالتها لتردد عليَّ ما لم أتفوه به، ثم إنها رفعت إبهامي اليسرى المجروحة، وفردتها أمام عيني الخاويتين لتردف:

ـ وقد اختارك الدم كي تصيري منا، وكي تحرري روح أمك من الألم الذي تكابده.

قلت وأنا أنظر إلى اللامكان:

ـ أمي؟!

ابتسمتْ، وربتت على كتفي في تعاطف قائلة:

ـ نعرف عنك كل شيء، إخوة الدم يعرفون عن بعضهم كل شيء، ولا تسأليني كيف.. ستعرفين وحدك بمرور الوقت.

ما دام الجرح الكائن في الإبهام اليسرى هو دليل الأُخوَّة المزعومة، إذن فأنا ونهى وجميلة عباس وسامي تيمور ـ الذي ما زال يتحدث على الشاشة ـ إخوة دم!

يا للارتباك ويا للعبث!

ـ في الأمر خطأ ما بالتأكيد.

اتسعت بسمتها وهي تعاود التربيت على كتفي وتقول:

ـ ما زلت تقاومين الحقيقة الواضحة كشمس النهار يا أختاه.

ثم إنها أنهضتني وهي تتابع:

ـ هيا.. بدلي ملابسك وهلمي معي حتى تتلاشى لديك كل الشكوك.

ـ إلى أين؟

سألتها دون سبب، فقد كنت لأتبعها إلى المريخ لو طلبت مني ذلك!

ـ إن الإخوة في انتظارك!

ردَّدتُ الكلمة كالمأخوذة:

ـ الإخوة؟!

أومأت برأسها أن نعم، ثم قالت:

ـ إخوة الدم يحتفلون دائمًا بكل أخ جديد يختاره الدم.

وثانية ردَّدتُ وراءها دون أن أعي:

ـ يحتفلون؟!

وثانية هزت رأسها:

ـ في قبو القصر الذي نجتمع فيه دائمًا.

وعندما نظرت إليها قالت مفسرة:

ـ قصر البارون.

ثم إنها دفعتني نحو غرفتي دفعًا وهي تحثني بقولها:

ـ هيا، لا تتأخري، قد يحضر الأخ الأكبر بنفسه هذا اللقاء.

لم أدرِ كيف بدلت ملابسي، فقد كنت غائبة في نظرات أمي عبر صورتها المعلقة في حافة المرآة.

لم أدرِ كيف غادرت المنزل، فقد كنت أسير خلف نهى كطفل يخشى فقد أثر أمه وسط الزحام.

لم أدرِ كيف هبطت الدرجات، ولا كيف وقفنا أمام البناية، ولا كيف ترك العم خضر مكانه المعتاد بجوار مدخلها، ولا كيف اختفت السيارات الرابضة أمامها، ولا كيف تلاشى السائرون والمارة في الشارع الذي تطل عليه.

لم أدرِ شيئًا البتة!

فجأة رأيت مصابيح تلك السيارة المقتربة من بعيد، ولما اقتربت ميزت كونها «١٣٢» فضية قديمة بحالة جيدة، وزجاجها داكن من جميع الجهات بحيث يستحيل أن ترى داخلها من الخارج.

توقفت السيارة أمامنا تمامًا؛ أنا ونهى، وقالت الأخيرة مقتربة من بابها الخلفي:

ـ اركبي في المقعد الأمامي، فأنتِ عروس الليلة.

راقبت البدر المستدير كعملة معدنية في سواد السماء المظلمة، ثم ركبت على الفور، لأرى قائد السيارة المبتسم في غموض، والمشير إليَّ بإبهامه اليسرى المجروحة.. (هذا الفتى ذو الجسم الرياضي بعضلاته المفتولة ورأسه الحليق وملابسه التي لا تزيد عن تيشيرت ضيق جدًّا وبنطال واسع جدًّا مليء بالجيوب؛ لا يمكن إلا أن يكون...).

صلاح، جاري الساكن بمفرده في الشقة العلوية، والذي ظننته مدمنًا لأفاجأ بأنه هو الآخر من إخوة الدم!

ـ إنه يحييكِ، هكذا يُحيي إخوة الدم بعضهم يا نسرين.

وأشارت نهى بإبهامها اليسرى المجروحة.

ثم انطلقت بنا السيارة على الفور.

١٠

بقدر ما يجهل الكثير كل شيء عن البارون «إدوارد إمبان» (١٨٥٢ ـ ١٩٢٩)، بقدر ما يعرف الجميع ضاحية «مصر الجديدة»، وذلك القصر الغامض القائم على أطرافها، المطل على شارع «صلاح سالم» الآن؛ قصر البارون.

المذكور رجل صناعة أوروبي الأصل بلجيكي النشأة، وبالإضافة لكونه صاحب القصر، هو أيضًا صاحب فكرة إنشاء وتصميم الضاحية بأكملها.

يروي التاريخ أنه في عام ١٩٠٥ تقدم البارون «إمبان» مع شريك له باقتراح للحكومة المصرية، لإنشاء ضاحية سكنية جديدة على أطراف العاصمة، وذلك لإقامة منازل وقصور أبناء الطبقة الأرستقراطية فيها بعيدًا عن زحام وسط المدينة وضجيجها.

وافقت الحكومة، وباعته مساحة كبيرة من الأرض الصحراوية بسعر زهيد جدًّا: جنيه واحد للفدان.

وبدأت «مصر الجديدة» تولد كحلم على الورق، وسرعان

ما تحول الحلم إلى حقيقة عندما بدأ البارون في إنشاء شركات للكهرباء، والمياه، والمترو، والبناء، وتقسيم الأراضي، وفي وقت قياسي تحولت الأرض البكر إلى مدينة جميلة هادئة.

اختار البارون «إمبان» موقعًا متميزًا منها ليبني قصره، الذي أراد جعله تحفة معمارية لم ترها مصر كلها من قبل، فأسند التصميم إلى المهندس المعماري «ألكسندر مارسيل»، وقرر الأخير أن يجمع القصر أسلوبين معماريين مختلفين، يضمهما نسق واحد متناغم، الأسلوب الأول: يعود لفن عصر النهضة، وقد حققه في التماثيل الخارجية لسور القصر. والأسلوب الثاني: يعود لطراز مستوحى من الأساطير الهندية القديمة، فصنع قبة وتماثيل بوذية وزين الحجرات بتماثيل تجسد هذه الأساطير.

استغرق بناء القصر عامين، وقد استورد البارون لأجله أفضل الخامات من مختلف الدول، وأقام فيه حتى مات، وخلفه ابنه حتى قامت الثورة عام ١٩٥٢، فتم بيع القصر في مزاد علني، ليغُلق من وقتها حتى يومنا هذا، ولتدور حوله الكثير من الحكايات، وتنسج المخيلات الخصبة عنه الكثير من الأقاصيص.

ربما ليس هذا وقت فذلكات تاريخية واستعراض عضلات ثقافية، لكني قد فعلتها وانتهى الأمر.

بقي أن أقول إن القصر مكون من طابقين، يضمان ست حجرات كبيرة وصالتين واسعتين، وهناك برج كبير على يساره مكون من أربعة طوابق بينها سلم خشبي حلزوني.

وبقي أيضًا أن أقول إن القصر طالما داعب مخيلتي وأنا أمر من

هذا الشارع الحيوي المفضي إلى طريق المطار، وإنني طالما ساءلت نفسي عن تلك الحكايات التي يروونها عنه وعن مدى مصداقيتها.

ولم أكن أتصور أنه سيأتي الوقت الذي ينكشف فيه كل شيء أمام عينيَّ.

كل شيء!

* * *

الشوارع خالية من السيارات والبشر، كأننا في مدينة هجرها قاطنوها.

تُرى، هل بدأت أهلوس؟!

ـ لا تقلقي يا أختاه.

قالتها نهى من المقعد الخلفي وقد قرأت أفكاري على ما يبدو، فنظرت إليها وهي تكمل:

ـ يستغرق الأمر وقتًا حتى تعتادي على التصرف كواحدة من إخوة الدم.

عدت أنظر من الزجاج الداكن، ورأيت كل شيء قد عاد إلى طبيعته.

السيارات والناس والزحام يملأ الشوارع القاهرية الليلية.

بالفعل، أحتاج وقتًا حتى أتأقلم مع هذا الجنون!

لأفرغ رأسي الآن من كل هذا، ولأسنده على ظهر المقعد في راحة واسترخاء.

مساء الخير.. يا حلوة

مساء الخير.. يا قديستي الحلوة

مساء الخير يا أمي

لست أرى أمامي الآن سواك، صورتك المعلقة في حافة المرآة ومركز أفكاري.

ماذا بك؟! ما الذي يزعجك إلى هذا الحد ويقض عليك مضجعك؟!

أي جريمة ارتكبوها في حقك لتموتي شابة، ولأُحرم منك بقية عمري؟!

ماذا تحاولين أن تقولي لي وما زلت عاجزة؟!

أي جناية تلك التي تحدثينني عن ارتكابك لها؟!

ماذا فعل بك أبي؟!

وكيف خانتك «ألفت» الصديقة الصدوق؟!

هل تريدين مني أن أصنع لك شيئًا حتى تهدئي بالًا؟!

أم تريدينني فقط أن أعرف الحقيقة؟!

صارحيني بكل ما تريدينه، وستجدينني طوع بنانك.

تمثلي لي حلمًا أو حقيقة أو رؤية أو رؤيا، وسأصنع لك كل ما تبغين!

فقط لو أعلم ما الذي تريدين!

فقط لو أعلم!

أشارت نهى بطرف سبابتها نحو نهاية الشارع الذي نسير فيه، وقالت منتشلة إياي من بحر الخواطر:

ـ ها قد وصلنا.

وتبدى القصر من بعيد.

شامخًا.. صامتًا.. مهجورًا.

ومخيفًا.

قصر البارون.

اقتربنا واقتربنا، وأوقف صلاح السيارة في شارع جانبي مظلم، ثم هبطنا ليلفح هواء الليل العليل وجوهنا الشاحبة.

سرنا بحذاء السور الخفيض، وتوقفت وحدي أمام ثغرة تسمح بعبور جسد آدمي، بينما استمرا هما يمشيان نحو البوابة الرئيسية.

ـ ألن ندخل من هنا؟

توقفا، والتفتا نحوي لألمح الاستغراب على قسمات وجه صلاح، والعطف في عيني نهى وهي تقول:

ـ إخوة الدم لا يتسللون أبدًا من الأبواب الخلفية يا عزيزتي!

ابتلعت ريقي، وقلت في شيء من الوجل:

ـ لكن.. البوابات موصدة!

اقتربت مني، وجذبتني من ذراعي لنواصل المسير:

ـ إخوة الدم لا يوقفهم شيء.

حقًّا؟!

لا أدري كيف انفتحت البوابات ولا كيف عبرنا من خلالها، كأننا هواء، أو أنني جُننت لا محالة!

سرنا نحو المدخل الأمامي للقصر، وأمامه تمامًا توقفنا.

في ظروف أخرى كنت سأُعجب بالتماثيل والنقوش والحس الجمالي العالي الذي شوهته بعض تعليقات المتسللين المتظرفين، الذين يأبون إلا أن يكتبوا عبارتهم الخالدة مثل «للذكرى الهباب» و«الحب الحقيقي»، بتوقيعات معبرة مثل «ميدو الوحش» و«تايجر الزعيم».

ـ استعدي يا أختاه.. سنهبط الآن إلى القبو.

ـ ألن ندخل القصر أولًا؟

عادت نهى تبتسم في شفقة، بينما أخفى صلاح تعجبه خلف صمته الدائم، وانحنى ليجذب حلقة معدنية خفيفة أمام المدخل تمامًا.

وانفتح مربع في الأرضية الرخامية التي يعلوها التراب على سبيل التمويه بالطبع.

ـ هيا.. كوني متأهبة.

أردت أن أخبرها أنني أكاد أنفق رعبًا، لكنها دفعتني للهبوط قبلها ففعلت، وعلى الدرجات الحجرية الممتدة لأسفل سرت في بطء، وكلما توقفت لأراقب الجدران الحجرية الغريبة التي تحمل شموعًا مضاءة، دفعتني يد نهى دفعات خفيفة لمواصلة الهبوط.

هبطت وهبطت طويلًا حتى خلتنا في رحلة إلى مركز الأرض، لكننا في النهاية توقفنا أمام بوابة عالية ذات مصراعين مبطنة بالقطيفة الحمراء، ويرتسم في منتصفها هرم ذهبي مشطور إلى نصفين.

وقفت ألهث، وتقدمت نهى وصلاح أمامي ليمسك كل منهما بمقبض من مقبضي المصراعين.

قالت نهى وهي تنظر إليَّ باسمة:

ـ إنهم خلف هذه البوابة.. هل أنت مستعدة؟

أومأت لها برأسي، وهمست في انفعال مهول:

ـ بالتأكيد!

ـ مرحبًا بك إذن بين إخوة الدم.

انفتح المصراعان بدفع منهما، واتسعت عيناي عن آخرهما وأنا أرمق ما وراء البوابة.

القبو الذي تصورته خرابًا ترتع فيه العناكب والحشرات وتغطيه الأتربة، ليس إلا قطعة من الفردوس المفقودة.

ثريا هائلة في السقف، والحوائط كلها مبطنة بالقطيفة الحمراء والإطارات المذهبة، الأرض تلمع بخشب «الباركيه»، ثم تلك الرائحة.

بخور يسكر العقل والوجدان.. وعشرات من الإخوة والأخوات، اصطفوا في نظام عجيب، وصنعوا ممرًّا خاليًا يمتد من الباب حتى نهاية القبو، حيث منصة عالية مرتفعة.

الإخوة كلهم حليقو الرؤوس، والأخوات كلهن تتدلى من آذانهن أقراط كبيرة ذات شكل موحد: هرم كبير ذهبي اللون.

انضم صلاح إلى الإخوة، وانضمت نهى إلى الأخوات، ولست أدري متى ولا كيف وضعت القرطين الكبيرين في أذنيها.

كلٌّ يمسك شمعة في يده اليمنى، ويشير نحوي بإبهام يده اليسرى ذات الجرح الملتئم، والجميع يبتسمون عين الابتسامة الغامضة.

ووجوه.. بحر من الوجوه المألوفة.

جميلة، أراها جيدًا في وقفتها هناك.

دعكم من نهى وصلاح.

الباقون وجوه غير معروفة لكنها مألوفة بشكل ما، أغلبها مر على عيني ولو بشكل عابر، أم أنه شعور حق بالأُخوَّة قد بدأ يتسرب إلى قلبي؟!

شيء ما يدعوني للدخول والسير في الممر الذي يصطفون على جانبيه، ربما نظرات العيون الشاخصة نحوي، كأنني عروس بالفعل

ينقصني عريس لأتأبط ذراعه، ونمشي معًا في أغرب زفاف في التاريخ!

لكن، شيء آخر يدعوني للإحجام.. بل للهرب من هذا العبث كله.

وهل للهرب الآن من سبيل يا نسرين؟!

ورأيت المنصة البعيدة تنشق فجأة عن شخص ما، ابتعدت النظرات عني نحوه.

(شاب غريب المنظر حقًّا، برأسه الحليق تمامًا على النِّمرة (زيرو)، وعويناته الصغيرة المستديرة، وجلده المشدود الذي يلمع كأنه مدهون بالورنيش، وملابسه البسيطة التي لا يظهر منها سوى تيشيرت أسود رُسم فوقه هرم ذهبي)!

سامي تيمور.. تمامًا كما رأيته في التلفاز اليوم وأمس، مع حرملة سوداء غريبة تنسدل فوق ظهره، وجسمين لم أتبين كنههما يتدليان من قبضتيه المضمومتين.

ـ تقدمي.. تقدمي يا أخت الدم.. تقدمي ولا تخشي شيئًا، فكل من هنا إخوتك.. تقدمي.

ما زال «صوته ناعم جدًّا يبعث في الأوصال الخدر، ويلقي على الأجفان غبار النعاس السحري».

وتقدمت دون وعي مني أو شعور.

ـ هناك روح تعاني في جسدك الفاني، جميعنا يعلم هذا.. تقدمي يا أختنا ولا تخشي شيئًا، لسنا هنا إلا لكي يساعد بعضنا بعضًا.

واصلت التقدم سائرة بين الإخوة، والخوف في داخلي يتلاشى شيئًا فشيئًا.

وبدأت أميز ما يتدلى من قبضتيه مع اقترابي.

ـ لسنا هنا إلا لأن الدم قد جمعنا، فأصبحنا إخوة.. شعورنا واحد، همنا واحد، وفرحنا واحد.

القرطان اللذان سأثبتهما في أذنيَّ، لأنضم إلى صف الأخوات.

ـ الدم، قوة الحياة.. ونبع الخلود.. وسر البقاء.

توقفت في النهاية أسفل المنصة، وقد تعلقت نظراتي بالقرطين ومن يمسك بهما.

قلت ولا أدري كيف غادر الصوت حنجرتي:

ـ أنت إذن الأخ الأكبر؟!

أرخى سامي تيمور جفونه قليلًا، ولاحت فوق شفتيه نفس البسمة الغامضة التي علت شفاه الإخوة، قبل أن يهز رأسه نفيًا ويقول:

ـ كلا.. لست هو.

لم أتوقع هذا مطلقًا، لكن وجهي لم يعطِ محدثي أي انفعال من أي نوع كان.

ـ ما أنا إلا واحد من الإخوة المخلصين والمقربين.

ومد قبضتيه نحوي بالقرطين مردفًا:

ـ خذي يا أختاه، ارتديه لتصبحي واحدة منا.

لكني لم أمد يدي، وسألته فيما يشبه العناد:

ـ مَن يكون الأخ الأكبر إذن؟

عادت البسمة الغامضة تعلو كل الشفاه، مع صمت بليغ لم يبدده شيء.

ـ مَن يكون؟!

سألته بلهجة حاولت إكسابها بعض الإصرار، لكنه لم يُجب.

ـ مَن يكون؟!

توجهت بسؤالي لبقية الإخوة هذه المرَّة، ومن جديد لم يُجبني إلا الصمت والبسمات المشبعة بالغموض.

وفجأة شهق الجميع، وخروا ساقطين أرضًا على سيقانهم، منكسي رؤوسهم على الشمعات التي يحملونها في أيديهم.

استدرت نحو سامي تيمور، هو الآخر استند بركبتيه على أرض المنصة العالية ونكس رأسه الحليق، دون أن يُسقط القرطين من بين يديه.

صرخت فيه وقد أرعبني ما يحدث حتى الارتجاف:

ـ ماذا تفعلون؟!

لم يرفع نحوي رأسه، وإنما أشار بيديه إلى نقطة خلف ظهري قائلًا بكل إجلال:

ـ لقد حضر الأخ الأكبر!

التفتُّ نحو ما أشار، وتراجعت إلى الخلف وأنا أكاد أصرخ من فرط ما اعتراني من مشاعر متضاربة.

انظروا هناك إلى البوابة التي دلفت منها قبل لحيظات.

انظروا إلى ذاك الواقف في اعتداد.

غارق في الظل.

كأنه جزء منه.

واسمعوا جيدًا صوته الأجش وهو يقول لي، لتدوي كلماته في الصمت المهيب الذي يغشى المكان:

ـ مساء الخير، يا صغيرتي!
تراجعت في هلع إلى الخلف.
وسقطت فوق الأرض اللامعة بخشب «الباركيه».
وفي الغالب، فقدت الوعي!

١١

الشمس رمادية، والأفق يتلألأ في رداء من الفضة الناعمة.

وحدي أسير على جسر من الخشب، يترنح فوق هوة عميقة، ويمتد من ضفة اليابس الخشن إلى أعتاب القصر المخيف، الشامخ فوق التبة.

لم أكن أنا.

لم أكن نسرين.

كنت ذلك الكائن الشفاف، المتنقل بين عوالم الحقيقة والخيال؛ دون كيان مادي.

لكن روحي توقن بأنني هنا.. وأن لي وجودًا ما!

السماء من فوقي غاضبة، تنذر بعواصف رعدية وسحابات حبلى بأمطار وبروق.

وبالأسفل بحيرة من حمم ونيران برتقالية جوعى لما تلتهمه.

وأنا...

وحيدة على الجسر المتهالك، المترنح في قوة بفعل الريح الصرصر العاتية.

لم أكن خائفة، ولم يعرف الرعب طريقه إلى قلبي.

على العكس، كنت أعرف طريقي جيدًا، وأسير نحو هدف محدد.

القصر الضخم، القائم في شمم وإباء على الناحية الأخرى، عند منتهى الجسر.

القصر الغارق في الظلام، المتدثر بعباءات الغموض السرمدي، والذي يطاول بقمة برجه الجانبي عنان السماء، مناطحًا للسحاب الذي ما برح يزداد دكنة وسخطًا، والذي بدأ يرسل قطرات ضئيلة من مطر.

ما الذي أتى بقصر البارون إلى هنا؟!

إلى عالمي الخاص الذي تمتزج فيه الأسطورة بالحلم، ويختلط فيه الخوف من الواقع، بالواقع المخيف؟!

لست أدري، وإن لم يكن التوقع بهذه الصعوبة التي يبدو عليها الأمر!

لم أشعر بالبرودة.

لم يتطاير شعري القصير بفعل الريح، ولم يسقط منظاري من فوق أنفي.

لم أبتل عندما قصف الرعد وأنار البرق وأضحى السحاب مدرارًا.

ولم أخشَ السقوط في جهنم المستعرة بالأسفل.

واصلت سيري نحو القصر سابحة في الهواء.

وشعرت بأني أقترب للغاية من مبتغاي، الذي لا أعرفه بعد!

لكني أقترب.. وأقترب.. وأقترب.

هل من أميرة أسيرة محتجزة في برج القصر؟!

ربما، لكني لا أصلح أبدًا في دور الفارس المخلص!

هل يستقبلني الكونت «دراكيولا» بنابيه الشهيرين عند البوابة؟!

ربما، لكن الأمر يتجاوز هذا الرعب الطفولي بكثير!

ماذا في الأمر إذن؟!

اسألوا البوابة التي انفتح مصراعاها فجأة بصرير مزعج.

اسألوا الضوء الباهر الذي انبعث من الداخل ليعشي عيني قليلًا.

اسألوا الصوت الذي انبعث جهوريًّا، أجشَّ، ومزلزلًا، على خلفية من موسيقى وهتاف حاد:

ـ رائع، لقد وصلت إلى هذا الحد إذن.

وإن لم يعطكم أي منها إجابة شافية.

ـ إنك جديرة حقًّا برؤية الحقيقة، التي سقط الباحثون عنها ضحايا؛ على جانبي طريق الآلام الطويل.

فاسألوا ذلك الظل الماثل أمام الضوء، الذي يجسد رجلًا بلا ملامح، يشير بسبابته نحوي، في حين استندت يده الأخرى على خصره.

ـ يا صغيرتي!

* * *

البهو الواسع يضج باحتفال صاخب.

موسيقى «الفالس» تعزفها فرقة؛ يرتدي أعضاؤها الحلل الأنيقة، والمدعوون يخاصرون المدعوات لتبدأ وصلة من الرقص الراقي السريع في المنتصف، أمام السلم العريض المؤدي للأعلى؛ حيث «بورتريه» زيتي لرجل سمين، كث الشارب، يرتدي الطربوش الأحمر، وتستقر على عينه اليسرى عدسة دائرية.

المكان لم يعد قصر البارون، لكنها قاعة واسعة تليق بأثرياء لهم تاريخ عتيد، وجذور ضاربة في تربة الحسب والنسب.

لم يرني أحد وأنا أسير بين المدعوين والراقصين بخفة قطة، ورشاقة غزال، ونعومة ثعبان شاب!

لكني رأيت كل شيء!

وكل شيء سمعت!

ـ احتفال أسطوري حقًّا، تمامًا كما كتبوا في بطاقة الدعوة!

قالتها شابة مبهورة بالجو الذي وجدت نفسها فيه، مخاطبة صديقتين واقفتين على جانبيها، وكل منهما تمسك بكأس يستقر في داخلها سائل أحمر رائق، التقطتاهما في خفة من فوق صينية فضية؛ عبر بها خادم يرتدي الزي الرسمي القديم.

ـ زفافي سيكون أفخم من هذا!

قالت إحدى الصديقتين وهي ترشف من كأسها في حسد واضح، فعاجلتها الأولى بالقول وهي تدفعها في كتفها:

ـ ومن أين لك بعريس من عائلة عريقة مثل عائلة خورشيد؟

قالت الثانية ضاحكة وهي تشير إلى ثالثتهن؛ التي جرعت كأسها دفعة واحدة دون أدنى قدر من اللياقة:

ـ ألفت خير من يجيبك عن هذا السؤال.

غمزتها الأولى وقالت:

ـ هذا إن لم تلتهم الغيرة قلبها أولًا

رأيتها وعرفتها، أصغر سنًّا ودون مناظير دقيقة تستقر على عينيها المحمرتين، كجمرتين خبيثتين!

هذا حفل زفاف إذن.

حفل جعل قلبها يحترق في جحيم الغيرة.

القاتلة.

حفل زفاف أبي وأمي ـ سليلة عائلة خورشيد العريقة ـ بلا ريب، ودون الحاجة إلى عقل إلكتروني جبار.

حق الدهشة مكفول للجميع، فأنا ولا فخر واحدة من القلائل الذين سنحت لهم الظروف بحضور زفاف الأب والأم قبل حتى أن يولدوا!

فكرة مجنونة.. لم تكن لتتحقق إلا في وجود جماعة غريبة مثل «أُخوَّة الدم» داخل حياتي، ربما حتى من قبل أن أولد!

سمعت ألفت تغمغم في سخط:

ـ سترون جميعًا!

وسمعت الصديقتين تشتعلان بالضحك المكتوم، ثم سرت بين المدعوين والراقصين الذين لم يشعروا بوجودي، غير الموجود أصلًا!

ليس من السهل أبدًا أن تشعر بأن هناك روحًا هائمة تسير بجوارك، قادمة من مستقبل يبعد عنك بمسافة زمنية قدرها سنون طويلة، وبطريقة تجهلها الروح نفسها!

لست أعرف الكثيرين في هذا البحر الأسود والأبيض من البشر ـ رجالًا ونساءً ـ لكن الوجوه كانت مألوفة بعض الشيء؛ مثل وجوه إخوة الدم الذين احتفلوا بي منذ قليل في قبو القصر القديم.

قصر البارون، الذي أسير بداخله الآن قادمة من مكان ما!

دعوني لا أسترسل في الأفكار والخواطر حتى لا أربككم وأربك نفسي أكثر.

الهمسات كثيرة، والغمزات أكثر، والحوارات الجانبية تعبر أذني في سلاسة، لكن أغلبها لم يسترعِ انتباهي.

القليل منها، والقليل جدًّا فقط، كانت لها هذه القدرة!

ـ هذا الفتى محظوظ منذ كان في المهد صبيًّا.

قالها رجل أشيب يرتدي حلة نصف فاخرة، محادثًا شابًّا متمردًا على بروتوكولات المناسبات الخاصة، بحضوره في ملابس السبعينيات المميزة: قميص مشجر، وبنطلون شارلستون، وشعر ضخم لم يحلقه منذ شهور طويلة.

قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة صافية جعلتني أميز ملامحه على الفور:

ـ قل إنه وُلِدَ وفي فمه ملعقة ماسية، ولن يجانبك الصواب كثيرًا يا عماه.

إنه عمي ممدوح.

هو كما لا تخونني عيناي، لكنه أصغر كثيرًا، إذ لم يحفر الدهر بإزميله القاسي التجاعيد المتغضنة؛ على ملامح وجهه بعد!

قال الرجل الذي خاطبه بـ«عماه»، هو شقيق جدي ـ والد أبي ـ الذي لم أره إن كان للفظ معناه الحرفي:

ـ ألا تنوي الإقدام على فعلها قريبًا؟

الزواج هو ما يقصده الرجل الأشيب دونما شك، وها هو ذا عمي يلتقط كأسًا من «الشربات» ويجرعه؛ ثم يقول باسمًا في مرح:

ـ أبعد الله الشر عنا يا رجل.

ابتسم الأشيب، وتناول كأسًا بدوره ثم قال:

ـ كل الشباب يقولون هذا، لكنهم يزدادون عقلًا بمرور الأيام.

هتف عمي ـ باعتبار ما سيكون ـ في نبرة صنعت نشازًا مع جو الحفل الهادئ الحالم:

ـ بل قل يزدادون جنونًا.

ونظر إلى سطح «الشربات» الرائق قبل أن يردف في غرور:

ـ لن أتزوج إلا إذا وجدت من تركع تحت أقدامي دون شروط مسبقة!

المسكين، لا يعلم بما يخبئه له الدهر من مفاجآت!

ها هو ذا يرفع الكأس، وقبل أن تلامس حافتها شفتيه يصطدم كوعه بمارٍّ دونما قصد، فيغرق «الشربات» بلونه الأحمر القاني ملابسه في تناقض ساخر.

لم أستطع متابعة تطور الأمر، لأنني مثل كل المدعوين توجهت ببصري نحو السلم العريض في صدر البهو، والذي اصطف على جانبيه رجال في ملابس لامعة متشابهة؛ ينفخون في أبواق أصدرت موسيقى مزعجة.

ثم ظهر العروسان، برزا فجأة كما يبرز النور من قلب الظلام، وكما تبرز الشمس من بين الغمام، وكما يبرز الصمت من سيل الكلام.

كانت تتأبط ذراع رجل يشبه صاحب الصورة الزيتية الكبيرة، لم تختلف هيئته كثيرًا عنه إلا في كونه أكثر أناقة وبدانة.

هابطة من أعلى، تخطر في فستانها الأبيض الرائع، وجهها مختفٍ

خلف قناع شفاف من التل، لكن فتنتها استطاعت اختراق هذا الحاجز الواهي لتسحر الموجودين جميعًا.

وصاعدًا من الأسفل ارتقى فارس الأحلام الدرجات في حلة باهرة، حتى التقيا عند منتصف السلم العريض، فتأبطت ذراعه، وتركها البدين الأنيق قائلًا في سرور:

ـ مبارك لكما.

قال أبي:

ـ شكرًا يا عمي العزيز.

وقالت أمي:

ـ بارك الله فيك يا أبتاه.

لكن صوتها جاء مبحوحًا متقطعًا غارقًا في الخجل والحياء.

وكنت بينهما، لكنهما لم يشعرا قَطُّ بوجودي.

أردت أن أصف لهما مبلغ سعادتي بلقائهما؛ الذي سيكون بمثابة إرهاصة مقدمي إلى هذا العالم المفرط في القسوة والظلم والظلام.

لكني لم أستطع.

خفق قلبي المضطرب بشدة عندما امتدت يده لترفع قناع التل عن وجهها؛ الذي سطع كألف نجمة تدور في مجرة غير بعيدة.

فكرت في حمل طرف الثوب الطويل المتدلي على السلم من خلفها، مع قطيع الأطفال الذين يحملون في أيديهم الأخرى شموعًا بيضاء طويلة ومتقدة، بعد أن سارت مع أبي الهوينى يهبطان الدرجات.

كدت أفعلها عندما.. لمحت ذلك الظل بطرف عيني، واقفًا عند نهاية الدرج بالأعلى.

الظل الغارق في السواد.
المتشح بأردية الحزن برغم إحجامه الأبدي عن الظهور.
أو الحضور.
أو التجلي.
الظل الذي بمجرد أن فطن إلى أنني قد رأيته، استدار وسار بعيدًا في خطوات سريعة مهرولة نحو الممر المفضي إلى اليسار.
ولأنني في كل الأحوال «نسرين الجبالي»، فقد قررت أن أترك كل شيء خلفي.
وأن أهرع على الفور خلف الرجل الظل.
الغامض.
الموجود بلا وجود.. والمختفي خلف ستائر العدم السرمدي!

١٢

ظلام.

وسباحة في تيار المجهول.

ومسافات أبعد من قدرتي اليسيرة على الاجتياز.

والدرب أطول من طويل.

دهليز يتراءى في نهايته الظل.

يدعوني للاقتراب.

فأدنو دون توقف.

حتى يتلاشى، وكلماته صدى يتردد في وديان أذني الداخلية:

ـ ألم تتألمي حتى الآن بما فيه الكفاية؟

لم ينتظر جوابًا، لكنه دفعني لدخول إحدى الحجرات ذات الأبواب المغلقة على جانبي الدهليز المظلم.

انفتح الباب في وجهي فجأة، واندفعت إلى الداخل بالقصور الذاتي.

ووجدت نفسي في غرفة أعرفها جيدًا.

عيادة أبي القديمة قبل أن يغلقها منتقلًا إلى مستشفاه الخاص الكبير.

لكن...

الضوء أكثر نعومة، مما جعل المنظر أشبه بحلم ضبابي.

أو أشبه بالصورة التي نراها عبر المرشحات الضوئية البيضاء في أفلام السينما ومسلسلات التلفاز الحديثة.

وهناك؛ أمام مكتبه الذي يتوسط الحجرة، جلست ألفت همَّام الشابة، تقضم أظفارها، وتنقر بأصابع اليد الأخرى على السطح الزجاجي، منفسة عن التوتر المرتسم جليًّا فوق ملامح وجهها؛ الذي ما عدت أطيق النظر إليه.

هأنذا أدنو شيئًا فشيئًا من الحقيقة التي تريدين لي معرفتها يا أماه الغالية.

أنت التي أرسلت بي إلى هنا.

إلى مجرى الزمن العكسي، لأرتد نحو منابع الماضي العذبة النميرة.. فأعلم كل شيء تريدين لي معرفته مع حفظ الأسباب.

أنت بالتأكيد!

سأعرف الآن ما كان بين هذه المرأة وأبي، وأستريح من عذاباتي الدفينة.

وأريحك أيضًا.

لم تطل وقفتي أمام الباب، حتى اندفع أبي ـ الأكثر يفوعًا ـ من خلال كياني الشفاف إلى الداخل، مرتديًا معطفه الأبيض المميز، ومتجاوزًا إياي ببضع خطوات.

ثم توقف كأنه بوغت بمرأى ألفت.

نهضت ألفت من جلستها في بطء شديد، وعلى وجهها أقصى علامات التجهم.

والمرارة تقطر مصفاة من ناظريها.

ـ أهلًا يا دكتور!

قالتها في تردد والكلمات تتعثر وتتكسر على أعتاب شفتيها، وبرغم أن وجهه لم يكن أمامي، إلا أنني ـ وبطريقة أجهلها ـ رأيت وجه أبي وقد علاه تعبير عدم الترحيب، وسمعته يقول في لهجة تنضح جفافًا وجفاءً:

ـ مرحبًا.. ما الذي أتى بك؟

واستدار جالسًا على مكتبه، في حين وجدت نفسي جالسة أمام ألفت، على المقعد المقابل للمكتب، شاعرة بشيء من الراحة الداخلية إذ يعاملها بهذا الشكل.

نادرًا ما يتحدث بفظاظة هكذا مع أحد.. إنه حلو اللسان مع الجميع بلا استثناء، إلا إذا...

ربما قتلت له ألفت أحدًا!

قالت ألفت وهي تعاود الجلوس، مبتلعة الإهانة بصعوبة:

ـ جئت أعتذر.

هتف بها مستنكرًا:

ـ تعتذرين؟! عن ماذا؟! عن جريمة؟!

فركت جبهتها بأصابعها وهي تقول:

ـ صدقني يا دكتور، لم أقصد أن...

قاطعها في انفعال لم أره يبلغه في حياتي من قبل:

ـ عذر أقبح من ذنب يا سيدتي.. هذه الأمور تُرتكب عن عمد كامل حسبما أعتقد.

حاولت أن تقول مجددًا:

ـ لكن سعاد...

صاح فيها:

ـ لا تنطقي باسمها على لسانك، وانسي أنها كانت صديقتك في يوم من الأيام.

احمر وجهها من فرط ما لاقته من تقريع عنيف، ونهضت دون أن تحول بصرها عن أبي، ثم قالت في نبرة خفيضة ذات إيقاع واحد:

ـ أقدر ما تعانيه من حزن وألم يا دكتور، وأقدر أيضًا قسوة ما فعلته، لذا أحتمل كلماتك عن طيب خاطر.. لكن، لا تنس أنني أعمل في مهنة لا قلب لها ولا عاطفة.. قد تتهمني بالبرود، وقد ترى ما فعلته جريمة نكراء، هذا حقك.. لكني لا أراه أكثر من واجب، لم أقصر قَطُّ، ولن أقصر مطلقًا، في أدائه.

لم يرد أبي، وسدد نظرات يطفح منها الحزن والألم إلى الأرض، في حين تابعت ألفت بلهجة واثقة حتى الموت:

ـ لقد كان خطؤك يا دكتور.. لا بد أن تملك الشجاعة الكافية لتعترف بهذا، ولا تلجأ لحيل علم النفس الدفاعية في إسقاط ذنبك على مرايا الآخرين.

لم يرد، وشعرت بأنه يهتز في جلسته تحت وطأة مشاعره الدفينة، وأكملت ألفت وقد ازدادت الثقة في لهجتها إلى درجة التحدي:

ـ أما بالنسبة إلى سعاد، فالرابطة التي بيني وبينها أقوى وأشد من أن تفسد برغبتك أو برغبة غيرك.. وستبقى إلى الأبد، حتى بعد أن نموت.. ألقاك على خير.. يا دكتور!

وعندما استدارت منصرفة، ساءلت نفسي:

ـ ترى، هل حقًّا رأيت جرحًا قطعيًّا طويلًا وملتئمًا على إبهامها اليسرى.. أم أنني أهلوس هنا أيضًا؟

لست واثقة.

ما أثق فيه تمام الثقة هو أن أبي كان في هذه اللحظة يهتز من فرط النحيب المكتوم.

وكانت المرَّة الأولى والأخيرة التي أراه فيها طوال حياتي.. يبكي!

* * *

رباه!

هل قتلها؟!

هل كان الخطأ الذي تعنيه هذه المرأة هو إسهامه بشكل أو بآخر في قتل زوجته؟!

هل تواطأت معه، أو عملت تحت إشرافه؟!

هل خططا معًا لشيء ما كان نتيجته الحتمية موتها؟!

رباه!

١٣

ظلام.

وسباحة في تيار المجهول.

ومسافات أبعد من قدرتي اليسيرة على الاجتياز.

والدرب أطول من طويل.

الصوت في آخر الدهليز الطويل ما زال يحادثني من طرف واحد:

ـ صغيرتي، الحقيقة دومًا سوداء كقلب شيطان.

وما زال يدعوني لولوج غرفة أخرى ينفتح بابها الموصد أمامي.

ـ ومؤلمة، كشوكة في الظهر.

وهل من بديل سوى الامتثال، والدخول دون شرط.. ودون شعور؟!

ـ أو كقطعة زجاج في الحنجرة!

هذا المكان أيضًا لا أجهله.

إنه مطبخ المنزل الذي أعيش فيه، والذي صنعت فيه صباحًا غدائي للمرَّة الأولى منذ جئت إلى هذه الدنيا.

ذرات الضباب الأبيض الشاحب ما زالت معلقة في جو المكان،

وألفت ما زالت جالسة، منكسة رأسها على طاولة الطعام الصغيرة في الركن.

دخلت سعاد حاملة عددًا من الأطباق الفارغة النظيفة، ترتدي ملابسها المنزلية البسيطة، وتدفع بطنها المنتفخ أمامها.

تجاوزت وقفتي أمام المدخل، ولم تنتبه لوجودي الشفاف من الأصل.

فكرتُ أن أناجيها.. أن أمد يدي وألمس وجنتها الناعمة الرطبة.. أن أندس في حضنها المحرومة منه إلى الأبد.

لكني أحجمت، فلم أكن قد نسيت حقيقة وجودي ها هنا، كمتفرجة فقط.

أو كشاهدة أخيرة، على جريمة؛ ما زلت أجهل عنها الكثير.

ـ دعيني أحملها عنك.

قالتها ألفت ناهضة بمجرد أن انتبهت لوجودها، وقد مدت ذراعيها عن آخرهما نحو الأطباق، لكن أمي ناورتها مبتعدة بما تحمله عنها وهي تهتف ضاحكة:

ـ اتركيني أمارس بعض النشاط، لقد كدت أتلاشى كسلًا!

وسارت نحو دولاب الأدوات المنزلية، بينما قالت ألفت بلهجة ذات مغزى.

ـ ألم ينصحك الدكتور بعدم حمل أشياء ثقيلة؟

قالت أمي مغتبطة وهي ترتب الأطباق داخل الدولاب في نظام:

ـ أعطاني قائمة طويلة من النصائح الذهبية، بل واشترى لي كتبًا متخصصة.. لديك على المنضدة واحد منها.

رفعت ألفت بيدها الكتاب المصور الكبير، وضيقت عينيها لتقرأ عنوانه مغمغمة:

ـ «كيف تعتنين بطفلك في عامه الأول؟».. رائع!

في سعادة بالغة قالت أمي وهي تغلق الدولاب:

ـ لن تتصوري كيف يغير الحمل الأول حياة الزوجين.

واستدارت نحوها متابعة:

ـ لقد أصبح هناك مَن هو أهم منهما في الحياة الآن!

حاولت ألفت أن تبتسم وهي تقول:

ـ ربما أفهم ذلك حقًّا في يوم من الأيام.

تجاهلت أمي الطيبة مغزى عبارتها، وقالت متجهة نحو الثلاجة:

ـ ستتناولين الغداء معنا اليوم، أنا وفاروق.

وشرعت تفكر في ما ستطهوه، وهي تجول بناظريها داخل محتويات الثلاجة المتراصة في استكانة، بينما قالت ألفت ولهجتها تترنح بين الإقدام والإحجام:

ـ أ..أخشـ..ى.. أ..أن.. الـ..دكـ..ـتور...

قاطعتها أمي وهي تخرج شيئًا ما من الثلاجة لم أستبن كنهه ولم أهتم:

ـ لا تخشي شيئًا.. فاروق لا يعترض أبدًا على وجودك معنا في أي وقت.. تأكدي من أن هذا لا يضايقه مطلقًا!

قالت ألفت متصنعة الدعابة:

ـ عهدي به أنه يمقت الصحافة والصحفيين.

أومأت أمي برأسها، وقالت متجهة نحو الموقد:

ـ إنه كذلك بالفعل، لقد حاولت معه مرارًا أن يسمح لك بإجراء مقابلة معه، لكن رفضه قاطع وصارم في كل مرَّة.. يقول لي دومًا: إنني لا أرفض ألفت كشخص، لكنه مبدأ.. الصحافة تعني الشهرة، والشهرة التي تتجاوز الحدود هي مقبرة النجاح لأي طبيب.

غمغمت ألفت لنفسها:

ـ تفكير عجيب!

لم تسمعها أمي، وتابعت حديثها وعملها المطبخي الذي يشف عن احترافية:

ـ لكنه أثنى مرارًا عليك وعلى شخصيتك، بل وعلى كتاباتك في «الهلال» و«آخر ساعة» و«طبيبك الخاص».. ولا يتعامل معك أبدًا من منطلق كراهيته الشخصية للصحافة.. خصوصًا أنك صديقتي الوحيدة ـ يا ألفت ـ في هذا العالم القاسي الموحش، الذي يزداد في كل لحظة قسوة ووحشة!

قالت ألفت متصنعة الود:

ـ خصوصًا أننا صديقتان منذ الإعدادية.

ـ سنون طويلة.

ـ الأيام تمر كالقطار السريع الذي لا يتوقف أبدًا.

ـ نعم، وعلى قضبانه تداس كل اللحظات الجميلة، وحتى الذكرى لم يعد لها في القلب مكان.

ـ فِيمَ كل هذا الحزن والتشاؤم؟!

تنهدت سعاد، وقالت متحسسة بطنها بأناملها:

ـ موعد الولادة أضحى دانيًا بشدة.

ـ لا أرى هذا مدعاة لما تقولين.

ـ نعم.. ولكن.. لا أدري.. كلما اقترب الموعد أزداد توترًا.. والأمومة تجربة جد مرعبة!

ـ إلى هذه الدرجة؟!

ـ وأكثر.

ـ أشعر بأنك ستنجبين بنتًا.

ـ بنتًا؟!

ـ وستكون جميلة ورقيقة كأمها!

أطرقت أمي للحظة كأنها تستجمع خاطرة ما، ثم قالت وقد علت شفتيها بسمة باهتة:

ـ أما أنا فأشعر بأنه سيكون ولدًا!

هزت ألفت كتفيها وقالت ببساطة:

ـ ليكن ما يكون، المهم أنه سيكون رابطة أخرى تجمع بينك وبين فارو... أقصد الدكتور فاروق!

ترقرقت طبقة دمعية لامعة في مقلتي سعاد/ أمي، وغمغمت وهي تشبك كفيها أمام صدرها في رجاء:

ـ كل ما أتمناه من صميم قلبي ألا يعيش حياته تعسًا مثلي.

وتنهدت في عمق، أغلقت عينيها، واهتزت انفعالًا وهي تتابع:

ـ وألا أجني عليه..

واشتعلت عينا ألفت، فأصبحتا كجمرتين خبيثتين، بينما أردفت سعاد دون أن ترى ما أراه:

ـ بما أعاني!

ثم...

* * *

كانت تعاني شيئًا ما إذن!

و...

١٤

ظلام.

وسباحة في تيار المجهول.

ومسافات أبعد من قدرتي اليسيرة على الاجتياز.

والدرب أطول من طويل.

الظل في آخر الدهليز ما برح ينادي، مشيرًا إلى باب موصد آخر:

ـ هنا يا صغيرتي كانت.. بداية النهاية.

وانفتح الباب.

ـ أو نهاية البداية!

ودخلت.

المكان غير مألوف هذه المرَّة، وإن لم يكن من الصعب استنتاج كنهه.

غرفة عمليات جراحية.

الكشافات الضخمة في السقف، أسفلها سرير تتحلق حوله كائنات طبية خضراء، وعشرات من آلات المتابعة المتناثرة حولهم، والصفارة المتقطعة المميزة لرسام القلب الآلي.

أقترب أكثر، فأرى أوضح.

الممرضات والأطباء الصغار المساعدون، عشرات من المشارط والمقصات، برك من الدم الأحمر القاني.. وفي المنتصف نجم الليلة.

أبي.

عرفته من عينيه الظاهرتين أعلى قناع وجهه المعقم، كان يجاهد للسيطرة على أعصابه وهو يصنع الفتحات داخل جسد المريض المغطى تمامًا، والذي لا يظهر منه إلا الجزء الذي يعمل عليه أبي.

لم أحتج للكثير من الذكاء حتى أخمن شخص المريض!

ولم أحتج للكثير من البراعة لأفهم أن أبي يكابد موقفًا حرجًا، فقطرات العرق تنداح على جلده المشدود، وكلما مسحت إحدى الممرضات بعضه بمنديل، عادت القطرات ترّشح وكأن المسام تفجرت سيولًا

أيضًا كان يرتجف!

لم يكن من السهل أن ألاحظ هذا، فهو يعمل بكل ما أوتي من مهارة، لكنها رعشة خفيفة رأيتها بصعوبة وهو يمد يده نحو حقل العمل، سرعان ما اختفت بعد شروعه في العمل فعليًّا.. على أي الأجزاء يعمل من جسد المريض؟!

لم أرَ، ولم يكن هناك وقت للتأكد.

فجأة.

تحولت الصفارة المتقطعة لرسام القلب إلى صفارة واحدة متصلة.. وطويلة.

ولأنني لست جاهلة طبيًّا، ولأنني مشاهدة جيدة لحلقات «غرفة الطوارئ»، فلم يكن من الصعب عليَّ أن أفهم ما يعنيه الأمر.

تكهرب الجو داخل الغرفة.

هرول الأطباء الصغار في كل ناحية، وضربت الممرضات أخماسًا في أسداس، وواصل نجم الليلة عمله وكأن شيئًا لم يحدث.

مر وقت، ولم تتقطع الصفارة المتصلة الطويلة.

ولم تتبدل.

ولم يتوقف نجم الليلة عن عمله الدقيق.. جدًّا.

ـ دكتور فاروق.

لم يتوقف.

ـ دكتور فاروق.

واصل عمله الدقيق وكأن شيئًا لم...

ـ لقد انتهى الأمر.

لم يستجب، ولم يتوقف.

ـ دكتور فاروق.

لم... ولم... وواصل عمله الدقيـ...

ـ لقد مات المريض.

هنا توقف.

تصلبت يده الممسكة بالمشرط فجأة وسط بركة الدم الأحمر القاني.

ـ لقد مات المريض.

عم السكون بعدها، ولم ينبس أحد ببنت شفة.

اكتسب الموقف جلاله المفترض، وأطل الحداد ممتزجًا بالشفقة والتعاطف من عيون الجميع.

ـ مات!

ووسط بحر العرق الذي يسبح فيه وجه أبي، لمحت قطرة تسيل من عينه.

قطرة مختلفة.

وحزينة.

وثكلى.

و...

١٥

كانت تعاني من شيء ما إذن.

وماتت في غرفة العمليات!

* * *

الدهليز المظلم.

والظل في نهايته يشير نحو باب آخر ينفتح رويدًا رويدًا:

ـ الزمن يا صغيرتي هو اسم اللعبة..

وتمنيت لو أطرح عليه آلاف الأسئلة.

ـ الرهيبة.

أو حتى سؤال واحد، يكون بمثابة قطرة تطفئ ألسنة النار التي تأكلني.

أو لعلها ترطب حلقي الجاف من هول ما أرى.

وأسمع.

لكنه تلاشى سريعًا.

بالإضافة إلى فقداني التام للقدرة على فتح وتحريك لساني.

لم أكن أعرف أن الأرواح الهائمة عاجزة عن الكلام قبل الآن.. الآن فقط عرفت!

وانسبت بكياني الشفاف إلى الحجرة الغارقة في ضباب مرشح الضوء الأبيض.

هذا من الأماكن التي أعرفها جيدًا، بل قل أحفظها عن ظهر قلب.

إنها صالة منزلنا بأثاثها القديم الذي تجلَّى لي في رؤيا سابقة.

ورق الحائط والمكتبة الأصغر والتلفاز الأعتق؛ لو كنتم ما زلتم تذكرون.

وأبي جالس على الأريكة، ممددًا قدميه فوقها، وعلى الأرض حذاؤه ومعطفه.

لم أشعر بالبرودة، لكنه شتاء؛ بدليل المعطف والأمطار التي تهطل بغزارة في الخارج، والتي أستطيع رؤيتها بوضوح عبر زجاج الشرفة.

وبدليل آثار الأقدام الموحلة، التي توحي بأن أبي قد أتى من الخارج من فوره.

قسماته توحي بإرهاق قاتل.

وبحزن أعمق من عميق!

صوت مفتاح يدور في قفل باب المنزل، والمزلاج يهبط ببطء.

لم يعر أبي الأمر أدنى التفات، كأنه كان يعرف هوية القادم.. أو القادمة!

أو كأنه يرزح تحت أثقال، تجعل من مجرد الالتفات نحو الباب مجهودًا عنيفًا!

ورأيت عمي ممدوح يدلف مسرعًا، غارقًا في مياه الأمطار والطين.. يبدو أنه قد فوجئ بمرأى أبي كما لاحظت على وجهه!

ـ فاروق.. أأنت هنا؟!

توقف ومعطفه يقطر بالمياه على أرضية المنزل، وكنت أقف بجواره، لكنه طبعًا لم يكن يملك حاسة سادسة يراني بها.

وأبي كذلك.

ـ أين ظننتني إذن؟!

قالها أبي بصعوبة كمن تعذبه الكلمات، وأسقط في يد عمي المرتبك وهو يقول متلعثمًا:

ـ إن سعاد...

قاطعه أبي على الفور، وهو يتنهد في ألم محرق:

ـ لقد ذهبت سعاد!

اقترب عمي ممدوح مطرقًا، وقال في أسى:

ـ أعلم!

ثم جلس على المقعد المجاور لأبي، وأمسك بكتفه قائلًا:

ـ لا تعذب نفسك أكثر من هذا يا أخي الحبيب، إنه القضاء والقدر!

ـ ونعم بالله.

ـ لا ذنب لك أو لها فيما حدث!

ـ حاول أن تقنعها بهذا!

ثم التفت أبي إلى عمي سائلًا إياه، وكأنه مدفوع للحديث بقوة السلاح:

ـ هل أتيت بالمجلة؟

صمت عمي ممدوح قليلًا، ثم قال في لهجة لا تقنع طفلًا صغيرًا:

ـ كل النسخ في السوق قد...

هتف أبي بضيق بالٍ مقاطعًا إياه:

ـ هيا يا ممدوح، أعرفك حين تكذب.

لاذ عمي بالصمت محدقًا في الفراغ، وواصل أبي بصدر ما برح يضيق:

ـ لا تجعلني أهبط خصيصًا لشرائها يا ممدوح.. أرجوك، أنت تعلم ما بي فلا تعذبني أكثر من هذا.

وبنفس الصمت مد عمي ممدوح يده إلى جيب معطفه الداخلي، ثم أخرجها قابضة على مجلة مطوية، تلقفها منه أبي بسرعة افتقدت الحماسة واللهفة.

وأخذ يقلب صفحاتها بسرعة وقلبه يدق.

ويقلب ويقلب.

ـ الصفحة ٣٧

قال عمي بنفس شروده وشخوصه إلى اللامكان، مختصرًا على أبي طريق البحث الطويل.. وبالفعل، وجد أبي ضالته المنشودة على الصفحة ذات الرقم المذكور.

حاولت أن أستدير لأرى الموضوع المنشور الذي يبحث عنه، لكنه أغلق المجلة فجأة وألقاها بعيدًا بمنتهى العنف والعصبية.

(وهي حالة أخرى لم أره عليها مطلقًا في حياتي من قبل، إلا هنا. للدقة... هناك!).

ومن بين لهاثه ـ كليث جريح بعد معركة محتدمة من أجل البقاء ـ غمغم:

ـ لقد فعلتها ألفت إذن!

واستدار إلى أخيه الغائب عن العالم مكملًا:

ـ عندما أخبروني لم أصدق، لكنها تتاجر بدم صديقتها على صفحات المجلة يا ممدوح.

حاول ممدوح أن يقول شيئًا:

ـ ربما لم...

غير أنه في الغالب لم يجد ما يقال!

ـ وبدمي أيضًا، وبسمعتي المهنية!

تابع فاروق الجبالي وقد ضاقت عيناه، ولمعتا ببريق مطفأ.. وبدأت أنا في جمع شتات الصورة من خلال ما أرى..

وأسمع!

* * *

كانت تعاني شيئًا ما إذن، وماتت في غرفة العمليات، فنشرت ألفت الخبر على صفحات المجلة، لتثور ثائرة أبي عندما زارته ـ ألفت ـ معتذرة في عيادته.

ألهذا تكرهها أمي؟!

ولهذا بثت الكراهية في صدري تجاهها عندما تقمصتني؟!

سؤالان في بحر لُجي من الأسئلة.

ولا جواب.

إلا عند الظل الماثل في نهاية الدهليز المظلم.

الذي لا أعرف حتى الآن ما علاقته بالأمر، من قريب أو من بعيد!

١٦

ـ أقرأ كل ما برأسك من أسئلة!

ويشير إلى غرفة جديدة ينفتح بابها أمامي:

ـ لكن صدقيني يا فتاتي.

وأدخل دون أن أريد.

ودون أن أقاوم.

ـ أنا لست أعرف ما تجهلين!

هذا مكان غير مألوف، مكان لم أره في حياتي من قبل.

إنه بعيادة طبية أشبه بـ...

عيادة طبية من نوع خاص لو جاز التعبير، ولو لم نحد عن جادة الصواب الموضوعي.

هذا «الشيزلونج» الطويل الذي تتمدد فوقه سعاد خورشيد ببطنها المنتفخ.. وهذا الرجل المتأنق ذو الملامح الهندسية، واللهجة التي تفوح منها روائح الريف البعيد، إذ يقول ضاغطًا زر التسجيل من جواره، لتنبعث موسيقى ناعمة حالمة:

ـ لقد قطعنا شوطًا طويلًا جدًّا يا سيدتي.

ليس إلا الدكتور مشهور فراج!

شعره ما زال أسود، لم تصبغه الأيام باللون الفضي البراق كما رأيته ظهر أمس، لكني لم أنسه بعد.

(لم أكن أعرف أن للأرواح الهائمة ذاكرة الأفيال إلا الآن.. الآن فقط عرفت!).

هذه عيادته النفسية لا ريب!

قالت سعاد، أمي، بلهجة هي التعاسة متجسدة في كلمات:

ـ يبدو أنني قد جئت الدنيا لأعذِّب من حولي فقط يا دكتور!

ابتسم الدكتور مشهور وسألها مبتسمًا:

ـ مَن قال هذا؟

قالت وهي تغمض عينيها في غير راحة:

ـ هو.. أقرؤها في عينيه كلما تخيلت وجهه أمام ناظري.

سألها الدكتور في تعاطف:

ـ أما زلت تشعرين بالذنب تجاهه؟

قالت سعاد مزدردة ريقها كأنها تبتلع شظايا معدنية:

ـ أنا المسؤولة عن كل شيء.

سألها ملتقطًا دفترًا صغيرًا ليدون على ورقة منه بعض الملاحظات:

ـ وما هي مسؤوليتك تحديدًا في أمر كهذا؟!

صمتت تفكر، وقالت بعد هنيهة:

ـ لا أدري.. ربما لو لم أكن مريضة.

قال مساعدًا إياها على الحديث:

ـ تعنين أن ما تعانينه هو سبب ضياعه منك؟

ـ أجل.

ـ وهل أنت مسؤولة عما تعانين؟

ـ لا أدري.. كلما فكرت شعرت بالصداع والارتباك.

ونظرت إلى الدكتور مشهور مباشرة لتسأله:

ـ لماذا توقفت عن كتابة المنوم لي يا دكتور؟ لقد أصبح النوم عزيزًا ونادرًا للغاية.. أحيانًا أنام لأقل من الساعة الواحدة في اليوم الواحد!

قال مشهور ملوحًا بالقلم بين أصابعه:

ـ إنه خطر على الحمل يا سيدتي، لا أخالك تجهلين هذا كصيدلانية معتزلة.

ـ أجل.. بالتأكيد.

همست بها وهي تشرد بعينيها قليلًا، ثم عادت تنظر إلى الدكتور مشهور قائلة في توسل:

ـ ألا يمكن أن أستريح من عذابي هذا حتى يأتي الوقت؟!

ـ أي وقت؟!

ـ أنت تعلم ما أقصده.

تنهد مشهور كأنه يبحث عن جواب مناسب، ثم قال هازًّا كتفيه العريضتين:

ـ لن يساعدك الطب ما لم ترغبي في مساعدة نفسك أولًا.

هتفت في لهفة:

ـ كلي رغبة صادقة، لكن...

عاد يلوح بقلمه وهو يقول بعد أن صمتت:

ـ الرغبة الصادقة لا تقترن بهذه الكلمة الاستدراكية مطلقًا!

تحسست بطنها المنتفخ بأناملها، وغمغمت وقد امتصها الشرود مجددًا:

ـ لم تواتني القدرة قَطُّ على التخلص من هذا الجنين.

قال مقرظًا:

ـ وازعك الديني قوي.

قالت من عالمها البعيد:

ـ جُل ما أخشاه أن.. تتكرر المأساة!

قال بلهجة عميقة:

ـ المؤمن الحق لا يقنط من رحمة الله.

تنهدت وقالت:

ـ صدقت يا دكتور.

سألها بعد أن ران الصمت للحظة، مغيرًا دفة الحديث:

ـ هل ما زالت الأمور تسير كما تخططين لها؟

فهمت سعاد ما يعني ـ ولم أفهم أنا في جلستي الشفافة على مكتبه ـ فأجابته على الفور:

ـ لا أدري، وإن كنت متشائمة بشدة.

ابتسم الدكتور وقال بنبرة جهورية واثقة:

ـ لا تقلقي أبدًا على فاروق، إنه صديقي منذ أن كنا طلبة في أروقة «قصر العيني»، وأستطيع الزعم بأنني أعرفه جيدًا.. هو رجل ذو مبدأ لا يحيد عنه مهما كانت الدوافع والضغوط قوية.

ابتسمت أمي في حنان عندما ذكر مشهور اسم أبي، وأغلقت عينيها لتغوص من جديد في عالم تأملاتها الساحرة.

قالت بعد أن فرغ مشهور من حديثه المسترسل:

ـ الحق ما تقول يا سيدي.

وعلت قسماتها تعبيرات دالة على الألم الدفين الذي يجاهد للطفو على السطح، وهي تردف بنبرة أُم تخشى على وحيدها من مكاره الحياة:

ـ كل ما أتمناه ألَّا يتعذب طويلًا عندما يأتي الوقت!

وران الصمت طويلًا هذه المرَّة، إلا من الموسيقى الناعمة الحالمة المنبعثة من جهاز التسجيل، حتى قال الدكتور مشهور في النهاية مغلقًا دفتره الصغير:

ـ ربما يكون ما سأقوله فظًّا وسمجًا ومتنافيًا مع أبسط قواعد الذوق واللياقة يا سيدتي، ولكن اعذريني إذ لا أستطيع كتمانه في قلبي أكثر من هذا.

نظرت إليه أمي في تساؤل، فقال منتزعًا الحروف من جوفه انتزاعًا:

ـ أنتما أكبر تراجيديا رأيتها وعشتها في حياتي يا سيدتي.

وابتسمت أمي في تفهم عميق!

ـ أعني أنتِ وفاروق بالطبع!

* * *

كانت تخشى عليه من شيء إذن، وكانت تعاني مرضا يعذبها ويعذبه.

كلامها الغامض لا يفضح الكثير.
إن الأسئلة في تزايد مستمر.
والإجابات ما زالت حلمًا بعيد المنال!

١٧

الظل.

والدهليز.

والصوت المدوِّي.

ـ لم يبقَ إلا القليل، عليك بالصبر والاحتمال يا صغيرتي.

الغرف.

والأبواب.

والولوج عبر باب مفتوح.

ـ مَن قال إن رحلة البحث عن حقيقة تائهة لا تتطلب بعض العناء؟!

والتلاشي.

صالة منزلنا القديمة، أمي تحمل طفلتها الصغيرة الباكية ـ أنا! ـ وتضعها فوق الأريكة، بينما يأتي عمي ممدوح من جهة المطبخ حاملًا قنينة زجاجية تحوي بعض اللبن.. المرشح الضبابي ما زال سيد الموقف، لكني تجاهلته وأنا أمعن النظر في نفسي.

(كائن ضئيل غض وأحمق، لا يدري من أمر نفسه شيئًا، ولا يدرك

ما تخبِّئ له الدنيا في الغد.. لقد جاء ليملأ الكون صراخًا وحركة، هذه رسالته في الحياة إن كان يدرك وقتها شيئًا كهذا!).

أنا في المهد لأول مرَّة خارج ألبوم الصور الرمادية، القابعة في ثنايا الألبوم العتيق، ذي الغلاف الأخضر الصلب.

ـ يا لها من فاتنة.

قالها عمي في حبور ضاحك وهو يناول القنينة لأمي، وينظر إليَّ.

مجامل هذا الرجل منذ وقت مبكر للغاية إذن!

ـ مثل أمها تمامًا!

تناولت أمي القنينة، ولقمتني قمتها في حنان رهيب، وقالت ناظرة إليَّ في سعادة عصية على الوصف:

ـ حقًّا؟!

ـ والاسم الذي اخترتِه لها رائع.

وقال كأنه يتذوقه لفظيًّا:

ـ نسرين فاروق الجبالي.. اسم ذو رنة موسيقية مميزة.

قالت أمي دون أن تحول بصرها عن وجهي الطفولي:

ـ ألفت هي التي اقترحت عليَّ هذا الاسم.

اربدَّ وجه عمي ممدوح وهو يسأل بمنتهى الضيق والتأفف:

ـ أما زلت صديقة لهذه المرأة الـ...؟

قاطعته أمي محولة بصرها عني:

ـ ما رأيك في الدادة رئيفة؟

قال عمي مستجيبًا لرغبتها غير المباشرة في تغيير مسار الحديث، وهو يشير بيده:

ـ تلك المرأة النوبية التي تعمل في المطبخ؟ تبدو طيبة القلب للغاية.

قالت أمي:

ـ كانت تعمل في منزلنا القديم.. وقد طلبتها شخصيًّا لترعى نسرين في غيابي، فلم تمانع للحظة برغم تقدمها المطَّرد في السن.

سألها عمي مقطبًا:

ـ وإلى أين ستذهبين؟!

أجابت ناظرة في عينيه مباشرة:

ـ أنت تعلم قطعًا.

فهم على ما يبدو ما ترمي إليه، فقال مشيحًا بوجهه عنها ومغيرًا الموضوع بدوره:

ـ أما زال فاروق في دوامة العمل كعهده؟!

سألته بدورها وقد أصاب قوله نقطة موفقة في حسها الأنثوي:

ـ ومَن يمكنه أن ينتزعه منها؟!

قال وهو يزفر مستعيدًا بسمته:

ـ صدقت.. بعض الناس قد ولدوا ليعملوا فقط!

هل يبدو الحوار مألوفًا نوعًا ما، أم أن ذاكرة الأفيال قد بدأت تخونني، كروح تفقد شفافيتها ببطء؟

ـ والآن.

قالت أمي:

ـ لنتحدث في الأمر المهم الذي أخبرتك أنني أريدك بشأنه.

قال عمي مصفقًا بكفيه:

ـ لهذا حضرت على عجل برغم أني مسافر بعد أقل من نصف الساعة!

ـ إلى أين؟

ـ الإسماعيلية.

ـ ولِمَ؟

ـ وجدت فرصة عمل جيدة هناك.. تعلمين أن البطالة في العاصمة تدفعنا للتنقيب عن ثقب إبرة، والحل الوحيد هو البحث عن عمل في الأقاليم القريبة.

ـ لن أطيل عليك إذن.

ـ تحدثي كيفما تشائين، فما زال أمامي متسع.

قالت أمي على الفور كأنها أعدت ما تريد قوله سلفًا في رأسها:

ـ لم يبقَ الكثير يا ممدوح بكل أسف.

لاح الحزن جليًّا في عيني عمي الضاحكتين أبدًا، وهو يسألها:

ـ ماذا تعنين بالله عليك يا سعاد؟!

قالت في ثبات:

ـ لست أظنني في حاجة للتفسير يا ممدوح.

قال مشجعًا:

ـ لا تتحدثي بهذه الطريقة يا سعاد، فرحمة الله أوسع بكثير من نطاق تفكيرنا الدنيوي الضيق.

قالت بنفس الثبات:

ـ ونعم بالله، عزَّ وجلَّ، لكن دعنا لا ننكر الحقائق الثابتة.

وصمتت هنيهة ثم تابعت:

ـ لحكمة جليلة أرادها تعالى سوف أذهب بغير رجعة، أنا وأنت نعلم هذا جيدًا.

قال مجادلًا:

ـ لقد مر وقت طويل و...

قاطعته في صرامة لينة:

ـ وقد حان الحين أخيرًا.. لا أريد أن أترك ابنتي في يد امرأة ليست أمًّا لها، لن أتركها تعاني من التعاسة والمرارة كما عانيتهما في حياتي.. لا أريد أن يحدث لها هذا أبدًا يا ممدوح.

سألها عمي ماسحًا وجهه بكفيه:

ـ وإذن؟

ـ لا أدري.

وصمتت، قبل أن تلقي بقنبلتها في وجهه:

ـ أنت لا تلاحظ بالتأكيد ذلك التقارب الذي يتم في الخفاء بين ألفت وفاروق هذه الأيام!

وامتقع وجه عمي ممدوح ذهولًا!

* * *

المفاجآت ما زالت تترى.

وأعصابي ـ حتى وأنا روح هائمة ـ بدأت تتحطم.

في الأمر خلل ما بالتأكيد.

أو خطأ ما.

هو شيء لا أفهمه، لكني أحسه.

يا لعجز العقل الضعيف في غابة الإنسانية الكثيفة، حيث شمس الحقيقة لا تخترق أبدًا تشابك الأغصان!

١٨

ـ لقد شارفتِ على بلوغ أسوار النهاية!

الظل ما زال دخانًا، أراه في آخر الدهليز المظلم شبحًا من رماد.

ـ أو لعلها البداية!

الباب الموصد ينفتح أمامي، والريح تجذبني للدخول.

ـ أو لعل البداية والنهاية يمتزجان، فيخرجان لنا من رحم المجهول كائنًا هلاميًّا جديدًا لا اسم له ولا لون ولا رائحة!

وأدخل إلى مكان غارق في الضباب الأبيض الشفاف.

غرفة نوم أبي التي أعرفها جيدًا.. أمي جالسة على طرف الفراش، وأنا بجسدي الطفل الضئيل في المنتصف.. نائمة ولا أصرخ هذه المرَّة.

مسحت بيدها على شعري القصير، المتناسب مع عمري الذي لم يتجاوز شهورًا قليلة، وترقرقت في عينيها دمعة مكبوتة.

حاولت الاقتراب منها ولمسها، لكن الفشل كان حليفي ككل مرَّة.

الأرواح الهائمة ترى وتسمع وتتألم فقط، فمن غير المسموح على الإطلاق أن تشعر بدفء اللمسة، أو بحميمية الاحتضان.

ترى، من أين تنبع موسيقى الكمان الحزين؟!

لماذا يتابعني أينما سرت صوت الكمان؟

نهضت أمي، نظرت إلى ملاكها النائم في وداعة واطمئنان وانحنت، قبلته في خده الناعم كالمخمل، ثم سارت نحو المرآة.

لم ترني في انعكاس صورتها وأنا أقف خلفها، أتأمل جمالها الهادئ.. وأمنِّي نفسي ـ ما زلتُ ـ بأن تحتويني بين ضلوعها كخفقة قلب.

كانت حزينة، قرأت الحزن سطورًا من أحلام قديمة في عينيها، وأحسسته جليًّا عبر كل خلجة من خلجاتها.

ولم أفهم الكثير.. لقد بدأت في اعتياد هذه الوضعية بعض الشيء.

رأيتها تمد يمناها، وتلملم خصلات شعرها الطويل المنسدل على كتفيها، وبيدها الأخرى تلتقط مشبكًا مميزًا بشدة، وتهم بعقص الشعر خلف رأسها.

عندما..

انفتحت نافذة الغرفة بغتة، وتطايرت الستائر بفعل الريح، مع شحوب الضوء داخل الغرفة إلى حد رهيب.

والتفتت أمي في رعب نحو النافذة، وكذلك أنا! ورأت ذلك الظل الطويل الذي تراءى خلف الستارة، وكذلك أنا!

شهقت أمي في فزع، ولم أشعر أنا إلا بخوف خفي المصدر عليها.

الظل أعرفه، بل اعتدت على مرآه في أحلامي وعبر ممرات القصر الغامض منذ قليل، ومن دونه فلربما كانت رحلتي إلى هنا أصعب!

لكن.. هل تبعني إلى حيث أقف ها هنا داخل الغرفة؟!

أم.. لعله جاء إلى أمي وقت أن كنت طفلة بالفعل.. ليختطفها مثلًا؟!

خيال مغرق في العبثية، أعلم، لكن...

هذا ما أراه الآن.

هناك!

ـ لقد عدت ثانية.

غمغمت بها أمي وهي تضع راحتها على فمها المفغور، تحدثت بصعوبة لكني سمعتها بوضوح، وتراجعت إلى الخلف حتى كاد ظهرها يلتصق بحافة المرآة.

أما الظل، فقد تجسد.

واقترب.

ـ أجل.. عدت!

الصوت الأجش العميق.

إنه هو، هو بعينه، وهو يقترب من أمي التي ما برحت تتراجع وتتراجع دون أن ينتبه هو الآخر لوجودي.

ـ ماذا تريد؟ أرجوك.. صدقني أنا لم...

هتفت بها أمي في رعب شديد، والمرآة تكاد تتوحد مع ظهرها المتراجع، بينما واصل هو اقترابه منها مادًّا إليها يده، وصوته يتصاعد دون فم يتحرك:

ـ صدقيني أنتِ.. أنا الذي لا

أعطاني انطباع أمي بأنه يريد أن يؤذيها ويلحق بها الضرر، فاندفعت بمشاعر الابنة المحبة أقف بينهما علّني أمنعه من الوصول إليها.

ـ قف، لا مزيد من الاقتراب.

أردت أن أنطق بها في صرامة، لكني اكتشفت في النهاية أنني لا أزال تلك الروح الشفافة، وازداد يقيني بالأمر عندما اخترق الظل وقفتي الواهنة نحو أمي، مواصلًا وهو يفرد ذراعه الدخانية:

ـ أنا لست هو!

واستدرت أتابع، فرأيت أمي تسقط على الأرض من فرط رعبها، وتغيب عن الوعي.

أو..

عن الحياة!

ـ أماااااااااه!

هرعت نحوها في هلع، ولأول مرَّة تطاوعني حبالي الصوتية كروح شفافة على الصراخ.

اخترقت الظل فتبدد، وجثوت على ركبتي أمام جسدها الهامد.

ذرفت دمعة حزن لا حدود له ولا تفاصيل، ولاحظت برغم فجيعتي العظمى شيئًا غريبًا: الجرح القطعي الذي ينزف بالدم على طول إبهامها اليسرى!

لقد جرحها مشبك الشعر دون شك عندما اخترق الظل المكان، و...

يا للدهشة!

ما الذي يحدث بحق السماء؟!

المشهد يتلاشى أمام ناظري كضباب ينقشع، لكن صوت البكاء الطفولي اخترق أذني قبل أن أذهب.

وعندما نظرت نحو السرير، رأيت الظل يحتوي جسدًا غضا صغيرًا.. يجاهد للتملص، دون جدوى.

و..

أحبك.. صار الكمان.. كعوب بنادق!

وصار يمام الحدائق

قنابل تسقط في كل آن

وغاب الكمان!

١٩

أفقت.

واجهني الظلام من كل صوب لكن عينيَّ اعتادتاه سريعًا، وبدأت في تمييز ما حولي، وفي إدراك وضعي في المكان والزمان.

هذه صالة الشقة.

الظلام يغشى المدى عبر زجاج الشرفة القريب، لا تبدده سوى البقع الضوئية المنبعثة من قمم أعمدة الإنارة، القائمة أمام شارعنا في شموخ.

نحن في الليل ما زلنا إذن!

كلا.

هذا ليس حلمًا جديدًا، وليست رؤية من الرؤى التي كثرت بشدة من الأمس إلى اليوم.

جسدي أشعر به، يهتز فوق المقعد الهزاز.

أستطيع أن أتحسس بيدي وجهي وشعري وقدمي.

هذا أنا ـ لست روحًا هائمة شفافة كما اعتدت أن أكون ـ وقد عدت أخيرًا إلى هنا، بعد رحلتي الطويلة مع المجهول.. وإلى المجهول!

لكن...

كيف عدت؟!

آخر ما أذكره أنني كنت في قصر البارون بصحبة الإخوة عندما...

هل عادوا بي وأدخلوني إلى هنا ثم مضوا إلى حال سبيلهم؟!

احتمال وارد على ما تحمله طياته من لامعقولية.

وما المعقول فيما يحدث لي من الأمس إلى اليوم؟!

نهضت من فوق المقعد بصعوبة، مفاصلي متخشبة، عضلاتي متصلبة، عيناي متورمتان كما أحسهما، ربما من فرط ما انغلقتا.

تُرى، كم الساعة الآن؟

دنوت من زر الإنارة، ضغطته فانغلقت عيناي برد فعل عكسي، ثم فتحتهما ببطء لتتشربا الضوء قليلًا قليلًا، ورأيت ساعة الحائط المعلقة في صدر الصالة.

إنها الرابعة والرُّبع.. فجرًا بالتأكيد!

كيف مر كل هذا الوقت دون أن أشعر؟!

كيف تسربت الساعات والدقائق والثواني هكذا دون أن أشعر؟!

كيف ضاع اليوم؟!

لا أعرف، ولا أطمح في إجابة!

الصالة هادئة تمامًا.

التلفاز مغلق، المسجل مفتوح لكن بكرة الشريط القابع داخله قد كفت عن الدوران، وأسفل المقعد الذي ما زال يتأرجح ببطء كتاب سقط مفتوحًا، عنوانه: «كيف تعتنين بطفلك في عامه الأول؟».

كل شيء هادئ، حتى داخل غرفة نومي التي دلفت إليها سريعًا.

السرير مرتب كما تركته صباح الأمس، الصندوقان اللذان يحتويان حاجيات أمي مستكينان في الركن، المرآة نظيفة براقة، وصورة أمي ما زالت معلَّقة في زاويتها العليا، تنظر نحوي كأنها تناديني للاقتراب.

سقطت بجسدي على السرير، مرهقة كأني كنت أعدو في «ماراثون»، ولم أنم لساعات طويلة غبت فيها عن الوجود كلية.

ثم بدأت الأسئلة تترى دون أن أستطيع مقاومتها.

ما هذا الذي يحدث لي؟!

أي جنون يفرض نفسه على جهازي العصبي؟!

هل حدث كل ما حدث بالفعل؟!

هل رأيت كل ما رأيت، وسمعت كل ما سمعت؟!

إنني ما زلت أتذكر كل شيء بأدق التفاصيل، مرعبها وغامضها ومفهومها.

لقد أتت نهى إلى هنا، ثم صحبتني في سيارة صلاح إلى القصر، وهناك رأيت جميلة وسامي والإخوة و.. والظل الغامض!

وهناك.. انتقلت بطريقة ما إلى مجرى الذكريات الزمنية التي لم أعشها، فانفتحت أمامي بوابات الماضي الصدئة، ورأيت ما فهمت منه الكثير؛ مما حجبه الكبار عني بعقولهم الراجحة حتى هذه اللحظة.

نظرت إلى إبهامي اليسرى، قربتها من عيني لأراها بوضوح.. الجرح ما زال مضمدًا.

وما زال ينزف كما يشي احمرار الضمادة.

الآن أعود إلى نقطة البداية محملة برغبة أمي قبل أن تذهب في كشف المستور.

القصة باختصار وترتيب بعد أن رأيتها دونما ترتيب: زواج أمي وأبي في قصر عائلتها المنيف، ثم مرض أمي الذي تزامن مع حملها في شخصي المتواضع، والذي كان يعالجها الطبيب النفسي من تبعاته النفسية الأليمة.. ولدتني أمي واشتد بها المرض فقرر أبي أن يُجري جراحة لها، ولما فشلت العملية وماتت أمي، نشرت صديقتها الوحيدة ألفت الخبر في المجلة التي تعمل بها مما أثار حنق أبي حتى الاشتعال.

ملاحظة مهمة: أمي والسيدة ألفت همام من «إخوة الدم»!

الأسئلة (بعضها فقط!): لماذا كانت تصرخ وتتهم أبي بقتلها في أثناء الولادة؟

عمَّن كانت تتحدث معه وهما يشاهدان أم كلثوم في التلفاز؟

ماذا أصابها؟ وممَّ كانت تخشى على جنينها/ أنا؟

هل كانت تخشى من وجود علاقة متنامية في الخفاء بين أبي وألفت؟

ماذا كان يعني الدكتور مشهور عندما قال لها: «أنتما أكبر تراجيديا رأيتها وعشتها في حياتي يا سيدتي»؟

الحقيقة ما زالت بعيدة، وأنا من هواة البحث والتنقيب عنها مهما كانت الصعاب.

ومهما كان الثمن باهظًا.

ربما كان «أوديب» مغفلًا وأحمق عندما أصر على أن يعرف، وربما كلفته المعرفة راحته ودعته وحياته الآمنة التي كان يحياها، بل وعينيه اللتين فقأهما معاقبًا نفسه على إثمه الرهيب، لكن هذا كان أهون كثيرًا من أن يقضي حياته الباقية آثمًا في بحور الجهل السوداء، سعيدًا بقتله «لايوس» أبيه، وبزواجه المحرم من أمه «جوكاستا»!

المواجهة كانت في رأيي، وما زالت وستظل، الحل الأمثل لاختراق الحواجز، مهما كانت عالية أو صلبة.

بمنتهى السرعة بدلت ملابسي، وهرعت نحو الصندوقين.. قلبت فيهما بسرعة، ولملمت أوراق التحاليل والتقارير الطبية المتناثرة ذات الطلاسم اللاتينية، خبأتها في جيوب سترتي ثم توجهت نحو باب المنزل!

نعم، سأهبط الآن فجرًا وأستقل تاكسيًّا، وليكن بعدها ما يكون.

إلى أين؟!

سؤال عجيب.

إلى المطار بالطبع وبمنتهى السرعة.

لماذا؟!

سؤال أعجب.

قبل أن تقلع طائرة أبي المتجهة إلى «مونتريال» في تمام الخامسة صباحًا، أي بعد أقل من نصف الساعة كما أخبرتني ساعة الحائط في صدر الصالة؛ وهي تخرج لي لسانها!

لا بد أن أراه الآن حتى أعرف ما خبأه عني لأكثر من عشرين عامًا.

كلا، لن أنتظره أسبوعًا حتى يعود.

فلست أتمتع بهذا الصبر أبدًا!

* * *

كنت محظوظة لدرجة أنني وجدت تاكسيًّا بعد عشر دقائق فقط.

ولأنني لم أقابل ذئبًا ضالًّا أو قاطع طريق مسلح في الشوارع الليلية الخالية من البشر، ركبت على الفور.

ـ المطار من فضلك!

قلتها وأنا أجلس لاهثة في المقعد الخلفي، فنظر السائق العجوز طيب القلب إليَّ في مرآة السيارة، وقال:

ـ الطريق طويل يا آنسة.

ليس طيب القلب إلى هذا الحد الذي يوحي به مظهره!

ـ سأعطيك ما تشاء، ولكن أسرع.

قال وهو يمص شفتيه:

ـ عشرون جنيهًا.

ـ وهو كذلك!

وانطلق بي كالصاروخ!

* * *

في الطريق رأيت قصر البارون.

شامخ لا يزال في موقعه المميز على الطريق.

غارق في الظلمة والظلام.

قد يوحي مظهره بالرعب والغموض.

لكن...

ليس مَن سمع كمَن رأى.

على الإطلاق!

* * *

هرولت نحو صالة المغادرين بكل ما تبقى في جسدي المنهك من قوة وعزم.

نظرت في ساعة يدي: لقد تجاوزت الخامسة بدقيقتين على الأكثر.

كدت أخترق البوابة، لكن ضابط الأمن أوقفني في صرامة، وفي صرامة قال:

ـ جواز السفر، والتذكرة، من فضلك!

لم أتوقع هذا، برغم أنه كان من البديهي أن أتوقعه.

قلت في ارتباك:

ـ إن والدي مسافر وقد...

وسارعت بتأليف قصة خائبة:

ـ وقد نسي نقوده في المنزل، أنا هنا لأحضرها له!

لم يقتنع بالطبع ـ فهم لا ينتقون السذج لمثل هذه الوظائف الحيوية ـ وقال:

ـ آسف، ممنوع!

قلت وقد اصطبغت لهجتي بالرجاء:

ـ أرجوك، إنني...

قال في حسم وهو يفرد راحته في وجهي:

ـ الدخول من هنا للمسافرين فقط.

ثم إنه أشار إلى بوابة أخرى:

ـ المودعون يدخلون من هناك!

صحت في غضب وعناد؛ فلم أكن على استعداد للعودة بخفي حنين:

ـ إنني صحفية، ومِن حقي أن...

قاطعني دون أن تلين لهجته:

ـ الصحفيون يدخلون بتصريح خاص من مكتب الأمن!

كل شيء منظم على ما يبدو، وأنا أحب الهيئات المنظمة، لكن هذا ليس وقت الحديث حول «اليوتوبيا»!

الوقت يمر ولن يتجمد أبدًا لمجرد أنني أريد ذلك.

سألت الضابط وقد كففت عن اللجوء إلى الحيل:

ـ إذن أخبرني من فضلك، هل أقلعت طائرة «مونتريال»؟

هز كتفيه وقال مشيرًا إلى نافذة قريبة:

ـ لست أدري في الواقع.. يمكنك التأكد من الاستعلامات هناك.

شكرته بإيماءة من رأسي.. وفكرت في إخباره بأن خطيبي ضابط مثله، عله يسمح لي بالدخول، لكني آثرت ألا أحرج نفسي معه أكثر من هذا، وألا أزج باسم هشام في كل صغيرة وكبيرة؛ برغم اضطراري كثيرًا لأن أفعل!

عبر النافذة رأيت موظفًا نحيلًا يجاهد للبقاء مستيقظًا.

ـ من فضلك.

نظر إليَّ بعينين محمرتين، وأشعل سيجارة.

ـ هل أقلعت طائرة «مونتريال» أم...؟

سألني وهو ينفث الدخان:

ـ طائرة ماذا؟

ـ كندا.. أعني كندا!

ـ لحظة.

قالها ونظر إلى شاشة حاسب آلي عتيق أمامه، ثم التفت نحوي وقال:

ـ أجل.. أقلعت منذ دقائق معدودة!

اعترتني خيبة أمل لم أشعر بمثلها في حياتي من قبل، خصوصًا وهو يشير إلى نقطة عالية خلف كتفيَّ ويتابع:

ـ في الغالب.. ها هي ذي.

واستدرت إلى حيث أشار، لأرى نقطة مضيئة في السماء التي بدأ الضوء البنفسجي الشاحب ينتشر على صفحتها الصافية.

الطائرة التي تحمل أبي الحبيب ـ ما زال حبيبًا برغم كل شيء ـ إلى أقصى شمال الكرة الأرضية الغربي، حيث الجليد والعواصف الرعدية ونهاية العالم!

سأنتظر أسبوعًا إذن في أتون الحيرة اللاهبة.. ما لم أفعل شيئًا.

لكن السؤال الذي طنَّ كألف نحلة مزعجة في عقلي، وأنا أسير الهوينى في ساحة انتظار السيارات الواسعة أمام المطار، باحثة عن سيارة أجرة تعود بي من حيث أتيت، كان: ماذا أستطيع أن أفعل؟!

ماذا يا نسرين؟!

٢٠

كاد الجرس يحترق من كثرة ما ضغطت الزر، وكاد الباب الخشبي يتداعى من فرط ما دققت فوقه بيد محمرة.

لكن نهى لم تفتح الباب قَطُّ.

السابعة صباحًا وقت مزعج لطرق الأبواب، خصوصًا بهذه الطريقة الفجة الخالية من اللياقة كخلو قلبي من الطمأنينة، لكني سأجن لو لم أرَ أحدًا الآن.

أحتاج لمن يُفهمني ما حدث، ومَن ينتشلني من الغرق في بحر الأفكار والخواطر.

واصلت دون كلل، لكن الباب ظل صامتًا، وظل الثور المعدني المثبت أعلاه يرمقني بعيون غاضبة.

إما أنها غير متواجدة بالداخل، وإما أن ذبابة «تسي تسي» قد نقلت إليها داء النوم أو الموت الزؤام، وإما أنها تتجاهلني.

الاحتمال الأخير كان واردًا قبل زيارتها لي البارحة، لكن اليوم نحن شقيقتان جمع بيننا الدم بطريقة عبثية ما زلت غير قادرة على فهمها أو هضمها.

في الغالب هي غير موجودة، وها هو ذا الجنون يدفعني لصعود السلم إلى أعلى.. مخاطرة غير محسوبة بالمرَّة أن أصعد لأطرق باب صلاح، الذي يعيش وحيدًا، لكني سأُجن لو لم أرَ أحدًا الآن، أي أحد له علاقة بما يحدث.

وصلاح واحد منا.

واحد من إخوة الدم!

سيارته الـ«١٣٢» الفضية كانت تربض بالأسفل، رأيتها وميزت رقمها بوضوح عندما عدت من المطار.

توقفت أمام الباب، فكرت قليلًا ثم اندفعت وضغطت زر الجرس.

لكنه لم يعمل، معطل هو في الغالب، فلا مفر من الطرق بيدي التي احمرت من الطرق على باب نهى.

لم يدم الطرق طويلًا هذه المرَّة، فقد فتح لي صلاح الباب، وعيناه المحمرتان تشيان بنعاس شديد، وبغضب أشد.

ـ صباح الخير يا صلاح.

لهث الفتى فيما يشبه الخوار، ثم سألني دونما ترحيب:

ـ ماذا تريدين؟!

احمر وجهي من فرط الحرج، وتبخر الكلام من على لساني:

ـ أ... أ...

ولما دامت تعتعتي طويلًا، جاء رده عليَّ عمليًّا جدًّا.

لقد صفق الباب بعنف في وجهي، وسمعته من خلف الباب يطلق سبة ما، ثم...

* *

ـ تفضل يا أسطى.

وانطلقت سيارة الأجرة بعيدًا، بينما وقفت أنا أرمق المبنى الهائل الممتد إلى السحاب، وبالتحديد تلك اللافتة المعلقة على شرفة من شرفاته الكثيرة.

«جريدة الأربعاء».

في هذا المبنى يقع مقر الجريدة، وقد قررت أن أواجه السيدة ألفت بكل ما عرفت عوضا عن أبي المسافر، على ما في ذلك من صعوبة بالغة.

كنت مستعدة للسير على أي طريق يقودني نحو الحقيقة الغائبة.

أي طريق مهما كانت وعورته.

وقفت أمام مدير مكتبها المتأنق في إفراط وقلت:

ـ صباح الخير

قال بسماجة متظاهرًا بالتقليب في أوراق يحويها ملف بين يديه:

ـ أهلًا!

معروفة أنا ها هنا بحكم قدومي المتكرر حاملة التحقيقات والمحاولات الصحفية المتنوعة، لذا فالكثيرون يحيونني ويتمنون لي في أعماقهم مستقبلًا مشرقًا مزدهرًا، أما هذا الكائن الرخو المسمى بمدير مكتبها فيُكن في أعماقه كراهية غير مبررة تجاهي.

تجاهلت لهجته كما أفعل دومًا، وقلت رامقة باب مكتبها بنظرات حادة:

ـ أريد أن أرى السيدة ألفت من فضلك.

قال بنفس السماجة وهو يواصل تقليبه في أوراقه دون حتى أن ينظر نحوي:

ـ هذا غير ممكن للأسف!

انفجرت فيه، وكنت أعرف أن هذه الخطوة قادمة لا محالة:

ـ لقد طلبت مني الحضور بنفسها.

لم أكن أكذب، فقد فعلت ذلك بالأمس وأغلقتُ السماعة في وجهها بمنتهى الصفاقة!

نظر نحوي هذه المرَّة سائلًا:

ـ متى كان ذلك؟

كذبت هذه المرَّة وأنا أجيبه:

ـ منذ ساعة تقريبًا!

عاد ينظر في أوراقه قائلًا:

ـ هذا أيضًا غير ممكن بكل أسف!

قطبت وأنا أسأله بانزعاج مستنكر.

ـ ماذ تعني؟!

قال:

ـ السيدة ألفت قد طارت إلى عمان فجر اليوم لحضور الملتقى النسائي الدولي الثالث المنعقد هناك.

مفاجأة لم تكن في حسباني، لقد فقدت فرصة المواجهة الثانية أيضًا.

سألته:

ـ ومتى ستعود؟

أجاب وهو يرد على هاتف رن فجأة:

ـ لا أدري بالتحديد.. ليس قبل أربعة أيام.. ربما خمسة.. آلو.

ولمحت في عينيه اللتين رفعهما نحوي قبل أن أغادر نظرة شماتة، واستدرت بالفعل عندما سمعته يناديني:

ـ يا آنسة.

التفتُّ إليه متعجبة.

ـ يمكنك أن تتركي لها ما تشائين، وسأعرضه عليها بنفسي عندما تعود.

قالها وقد رفع السماعة التي يتكلم فيها وأبعدها عن أذنه وفمه، أما بسمته فلم يألُ جهدًا في جعلها نموذجًا تجريديًّا للاستفزاز في أنقى صوره.

ـ كلا، أشكرك.

واستدرت مسرعة بالمغادرة قبل أن يناديني ثانية، شاعرة بأن الدنيا قد أغلقت جميع أبوابها في وجهي.

أما هو فقد عاد يتحدث على الهاتف باستمتاع.

رباه!

لتحبني بقدر ما أكره أفراد السكرتارية ومديري المكاتب في أي مكان!

* * *

عندما انتهت المحاضرة، اتجهت قافلة مكونة من رحاب، ومروة، وشيماء رويتر، وتامر فوزي ـ صديقنا المثقف أحيانًا ـ إلى الكافتيريا.

وهناك، رأوني جالسة في الركن وحدي، شاردة تمامًا.

في الحق، كنت أزن فكرة مجنونة ما في رأسي، عندما اخترقوا عليَّ جلستي الانفرادية.

ـ نسرين.. أأنتِ هنا؟

قالتها رحاب في دهشة، في حين سألتني مروة:

ـ ما بكِ؟ لمَ تجلسين وحدك هكذا؟

قلت في ضيق لم أفلح في إخفائه:

ـ لا شيء.

جلسوا حولي دون دعوة، في الحق لم يكونوا في حاجة إلى واحدة، أنا التي كنت في حاجة للتفكير الهادئ بعيدًا عن أي بشر.

إن طاقتي الاجتماعية كانت في أدنى معدلاتها وقتها.

ـ فاتتك محاضرة دكتور رؤوف كساب!

قالتها شيماء وهي تنظر نحو تامر الذي هتف محنقًا:

ـ ذلك الوغد!

قلت وأنا أضغط براحتي على مقدمة رأسي:

ـ مزاجي متعكر قليلًا.

سألتني مروة في اهتمام يليق بروحها العطوف:

ـ لِمَ أتيتِ اليوم إذن؟ كان الأجدر أن تستريحي.

قلت متنهدة:

ـ لم أطق الجلوس وحيدة في المنزل.

قالت رحاب وكان لديها كل الحق فيما تقول:

ـ منذ البارحة وأنت لست على ما يرام.. حالك لا يسر!

لم أستطع النطق بشيء، وانتهز تامر الفرصة ليغوص في المقعد ويلقي على أسماعنا بمحاضرة فلسفية:

ـ كلنا يأتي علينا الوقت الذي نشعر فيه بشيء كهذا.. بحالة رتيبة

من التكرار والروتين والتشرنق.. إنه الملل.. ذلك الكائن المقيت الذي يحيل حياتنا جحيمًا رمادي اللون والطعم والرائحة ببطء.. حتى إنه يدفع البعض أحيانًا إلى الانتحار.

واستخدم يديه مواصلًا:

ـ إن أنيس منصور يقول في هذا الشأن: «الذي يشعر بالملل ليس هو الذي لا يرغب في الحياة، وليس هو الذي لا يرغب في الموت.. لأن الذي لا يرغب في الحياة يرغب في الموت، والذي لا يرغب في الموت يرغب في الحياة.. فكلاهما يرغب في شيء.. ولكن الذي يمل أو الذي يتململ هو إنسان لا يرغب حتى في الرغبة»!

رائع يا تامر.. لكني لست في حالة تسمح لي بالاستماع أو الاستمتاع بثقافتك الضحلة لدرجة أنك تحفظ مقطعًا من كتابات أنيس منصور.

اعذرني إذن!

ـ ليس مللًا، ولكن...

قلتها متحاملة على نفسي، لكنه صاح في حماسة ملوحًا بيديه:

ـ لا يوجد «ولكن».. هيا، دعوني أدعوكن للذهاب إلى ندوة من طراز خاص تقام في...

قاطعته وأنا أنهض:

ـ كلا.. لنؤجل هذا الأمر إلى وقت آخر.

سألتني شيماء:

ـ هل ستعودين إلى المنزل؟

ـ كلا.

قال تامر في إغراء:

ـ إنها ندوة فريدة من نوعها، صدقيني.. ربما وجدت فيها مادة خصبة تنقلينها للقراء عبر جريدتك.

زفرت قائلة:

ـ فيما بعد.

سألتني رحاب:

ـ إلى أين ستذهبين إذن؟

أجبتها:

ـ سأسافر.

قطبت مروة وسألتني باستغراب:

ـ تسافرين؟! إلى أين؟!

قلت في صلابة:

ـ إلى الإسماعيلية.

سألني تامر هذه المرَّة:

ـ ولماذا؟

قلت في نفاد صبر وأنا أنظر إلى ساعة معصمي:

ـ لزيارة عمي المقيم هناك.. التفاصيل أخبركم بها لاحقًا.. إلى اللقاء.

وابتعدت دون كلمة زائدة.

* * *

بعد أن غابت نسرين عن أنظارهم، التفت إليهن تامر وقال ماطًّا شفتيه:

ـ خسارة، ستفوتها ندوة رائعة.

ونظر إليهن ليتابع في إقناع:

ـ هل تعلمن من سيكون نجمها؟ إنه سامي تيمور، خبير الروحانيات الشهير.

علقت شيماء هاتفة في حماسة:

ـ يا للروعة!

وقالت رحاب مفكرة:

ـ ليس الاسم بغريب عني.

بينما قالت مروة في تعقُّل:

ـ لقد رأيته بالأمس في التلفزيون مع الدكتور مشهور.

ابتسم تامر قائلًا:

ـ ستأتين معي ثلاثتكن إذن.

فرقعت شيماء بإصبعها قائلة:

ـ بالتأكيد.

وقالت رحاب مازحة:

ـ دعني أفكر قليلًا.

وحسمت مروة الأمر بقولها:

ـ ربما بعد أن تنتهي المحاضرة القادمة!

٢١

ليس سوى عمي ممدوح.

إنه الوحيد الذي يمكن أن أستعين به الآن، إذ يعرف الكثير دون شك.

لقد كان هناك.

شاهدته أكثر من مرَّة في الرؤى الماضية التي تجلت لي.

رأيته في حفل الزفاف، ورأيته يحضر المجلة لأبي، ورأيته يتحدث مع أمي عن سر لا يعرفه سواه.

حمدًا لله أن الطريق إلى الإسماعيلية ليس بعيدًا، المسافة يقطعها الباص المكيف في أقل من الساعة ونصف الساعة.

من «الترجمان» ركبت باص الساعة الثانية ظهرًا.

وانطلقت في محاولة أخيرة لكشف الأسرار.

* * *

أخذت ـ كما أفعل دومًا في طرق السفر البرية ـ أتلهى بعد الأشجار القائمة في منتصف الطريق تارة، وبمتابعة اللافتات الإعلانية الضخمة

على الجانبين تارة، وتارة ثالثة بانتظار لافتات المسافة الصغيرة ـ التي تتناقص فوقها الأعداد كلما اقتربت ـ في ترقب.

في الباص جلست على مقعدين بمفردي حتى لا يضايقني أحد، وحتى لا يثرثر معي أحد.

لقد بلغت طاقتي الاجتماعية الحضيض.

وبلغت حالتي المزاجية أسوأ حالاتها.

مع أذان العصر هبطت في المحطة، لتقابلني الإسماعيلية بنسماتها الرطيبة كأنها تحييني على طريقتها الخاصة.

جميلة هذه المدينة وهادئة ونظيفة منذ ولدت على ضفاف قناة السويس.

لا آتي إلى هنا كثيرًا بحكم الوقت الذي تلتهمه حياة العاصمة في نهم؛ كوحش لا يشبع، برغم أني أعشق الهدوء والخضرة والجمال الخاص الذي أصادفه كلما جئت.

كنت أتمنى لو أتيت في ظروف أفضل من هذه، لكن.. ما باليد حيلة.

أشرت لسيارة أجرة فتوقفت على الفور.

ـ حي «الشيخ زايد» من فضلك.

وانطلقت بي السيارة البرتقالية نحو العنوان الذي أمليته مفصلًا.

حاولت الاتصال برقم عمي عبر هاتفي المحمول لأخبره بأني قادمة، لكن أحدًا لم يرد، ربما هو في نوم القيلولة أو ربما يكون في مشوار ما.

أيًّا كان الأمر فسأقابله، أنا لم أقطع أكثر من المائة كيلومتر حتى أعود دون إجابات.

هبطت أمام بناية صفراء يبرز من جوانبها الطوب الذي بُنيت به، ونقدت السائق أجرًا خياليًّا كنت سأدفع أضعافه في سبيل مسافة كهذه في القاهرة.

إنني أغبط سكان الأقاليم حقًّا على حياتهم السهلة!

هأنذا أصعد في الدرجات نحو الشقة في الدور الثالث، وقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من كشف المستور.

وها هو ذا باب الشقة.

ممدوح الجبالي
محاسب

اسم عمي مكتوب بخط النسخ الجميل، على لافتة صغيرة تتوسط نصف الباب العلوي.

لم أخطئ العنوان، لحسن الحظ الذي لا يحالفني كثيرًا.

وضغطت الجرس ثم طرقت الباب.

وبدأت رحلة طويلة من عذاب الانتظار والطرق دون جدوى.

وبالإضافة للجرس المتواصل والطرق المزعج، أخرجت هاتفي المحمول وبدأت في الاتصال برقم عمي.. سمعت صوت الهاتف يرن في الداخل لكن أحدًا لم يفتح.

كلا، ليس هنا أيضًا!

أرجوك اظهر يا عماه!

انهض من نومك إن كنت نائمًا، وافتح لي إن كنت تتجاهل ضيفًا ملحاحًا وثقيلًا مثلي، وعد من الخارج إن كنت في مكان ما.

ليس في الداخل كما يسهل الاستنتاج.

هل سافر إلى مكان ما هو الآخر؟!

هل تآمرت كل الظروف ضدي؛ لأفقد كل من بيده أن يدلني على شيء في يوم واحد؟!

وفي اليوم الذي أحتاج إلى أي منهم فيه بالذات؟!

كلا.. هذا كثير.

كثير جدًّا.

أكثر من طاقتي المحدودة جدًّا على الاحتمال.

شعرت بأن قدميَّ ترتخيان، فجلست على السلم وأنا أغالب رغبتي في البكاء قهرًا وكمدًا وضيقًا عارمًا، لكن شعاعًا أخيرًا من النور بدد الظلام الذي تراءى شبحًا أمام عينيَّ.

شعاعًا برز من خلف باب آخر، مجاور لباب شقة عمي:

ـ يا آنسة.

رفعت ناظري نحو الصوت الأنثوي الغليظ الهاتف.. وأجبت النداء لا إراديًّا:

ـ أجل.

ـ مَن أنتِ؟

امرأة لحيمة بدينة ترتدي ثيابًا منزلية مبتلة، وتربط منديلًا ملونًا حول شعر رأسها الخشن.

ملامحها غير جميلة، لكنها تشي بأمومة وطيبة بلا حدود، وقد أردفت بعد أن سألتني لتريني كم هي ذكية ولماحة:

ـ هل تريدين الأستاذ ممدوح؟

نهضت هاتفة في لهفة عارمة، وكدت أن أتشبث بها كطوق نجاة وجدته في بحر عاصف:

ـ أجل.. إنه عمي.. شقيق والدي رأسًا.

تمعنت في وجهي للحظة ثم قالت مبتسمة في عفوية:

ـ تشبهينه إلى حد ما.

ثم أفسحت لي طريقًا للدخول مردفة بمنتهى الأريحية:

ـ تفضلي عندنا قليلًا يا حبيبتي.

ـ أشكرك بشدة ولكن...

ما زلت طفلة تتهيب الغرباء مهما بدوا منبسطين.

ـ ألا تستطيعين أن تدليني على مكان تواجده الآن؟

قالت المرأة:

ـ في العمل...

آخ.. أنا لا أعرف أين يعمل عمي أصلًا، ولا متى سيعود.

ـ سيعود متأخرًا، ليس قبل السابعة مساءً كما يعود كل يوم!

لقد أوصدت آخر الأبواب في وجهي أيتها المرأة ذات الملامح الطيبة.. فشكرًا لك!

غمغمتُ في قنوط وأنا أنظر إلى الأرض:

ـ حقًّا؟! ولكن.. يجب أن أعود قبل أن يهبط الظلام!

سألتني المرأة:

ـ أنت من مصر.. أليس كذلك؟

ما زال سكان الأقاليم يطلقون على العاصمة اسم «مصر» إذن، لم يتغير هذا التقليد كثيرًا منذ جئت آخر مرَّة.

أجبتها وأنا أحاول الابتسام دون جدوى تذكر:

ـ أجل.. أنا من القاهرة!

قالت المرأة في صدق:

ـ تفضلي إذن وانتظريه لدينا حتى يعود.

برغم رغبتي الصادقة في أن أفعل، رفضت تأدبًا لا تهيبًا:

ـ أشكرك بشدة.

مظهر المرأة لا يوحي بالشر أبدًا، ثم إنها جارة عمي، وهذا أدعى للطمأنينة.

ـ لا تخجلي مني يا فتاة، ألم يخبرك عمك من قبل عن أم حسن؟

ابتسمت وأنا أبحث في ثنايا عقلي المكدود عن رد مناسب، لكنها سبقتني بالقول:

ـ إنه يترك صغيره حمادة...

وفجأة، انطلقت في وجهي رصاصة على شكل طفل مشاغب، اندفع من الداخل هاتفًا:

ـ تانت نسرين!

وتعلق بي حمادة في عنف حتى كدت أسقط على ظهري، بينما تابعت أم حسن قولها الذي تم تفسيره عمليًّا:

ـ لديَّ دائمًا حتى يعود.

وعندما نظرت إلى وجه حمادة الأسمر وشعره الأكرت وابتسامته

العريضة البلهاء، أيقنت أنني منتظرة في شقة أم حسن لا محالة.

وابتسم شيء ما في أعماقي، نصف ابتسامة، بصعوبة!

* * *

روت لي أم حسن الكثير والكثير من الحكايات التي لا تنتهي، وكأنها تعرفني منذ ولدت، أو كأنني صديقتها الوحيدة المقربة منذ آلاف السنين!

ولم يكن بيدي إلا الاستماع والتفاعل بالهمهمة والإيماء، عرفانًا بجميلها في إيوائي وإزجاءً للوقت الذي لا يمر أبدًا.

في الحقيقة لم أكن مهتمة بسماع قصة حياتها منذ ولدت، أو قصة زوجها الذي يعمل نجارًا في جدة، ولا يهبط في إجازة إلا لمامًا، أو قصة ابنها الوحيد، حسن، ومعاناتها المريرة في إنجابه بعد سبع سنوات من الزواج دون أطفال، أو قصة جارتها التي سقطت في أثناء صعودها على السلم ورقدت في الجبس لما يزيد عن الشهر، أو قصة الطعمية المسممة التي يبيعها رجل عجوز عند أول الشارع دون أن تقبض عليه الصحة، أو... أو...

لكني استمتعت قدر جهدي القليل، إذ أنا مجبرة لا بطلة!

تناولت غدائي معها بعد أن أقسمت بأغلظ الأيمان إنني لو لم أفعل فستلقي بنفسها من الشرفة، لم آكل كثيرًا برغم أنها طباخة ماهرة كما يشير الطعام، معدتي متحجرة وبالي مشغول، لكني لا أود أن ينتهي اليوم بانتحار المرأة التي أجلس في منزلها.

الأمر أبسط من هذا بكثير.

تبًّا لعقارب الساعة التي تُخرج لي لسانها وتُضرب عن الدوران.

أما عن حمادة فحدث ولا حرج، خصوصًا عندما يلتقي بطفل آخر لا يقل عنه شقاوة وشيطنة، هو حسن، ابن أم حسن!

كانا يتقافزان مثل «اليويو»، ويتشاجران حتى البكاء، ثم يلعبان «الاستغماية» فيختبئ أحدهما في الغسالة ويبحث عنه الآخر داخل الثلاجة أو البوتاجاز!

لم أستطع منع نفسي من الابتسام أحيانًا وأنا أراقب هذا السيرك المنتصب أمامي، والذي لم تكترث له أم حسن كثيرًا، ربما بحكم التعود والألفة.

كنت أعرف كما يعرف الناس جميعًا أن للأطفال طاقة جبارة يخرجونها في اللعب والمشاكسة والمشاغبة أحيانًا، لكني أيقنت بأن هذه الطاقة لا تفنى أبدًا لدى أطفال من عينة حمادة وحسن!

ومر الوقت في مزيد من حكايات الجيران والزواج والطلاق والخطوبة والغلاء...إلخ، وفي مزيد من المشاغبات والصراخ والقفز والضحك والبكاء.. حتى بدأ الظلام ينشر بقعه الداكنة على عباءات الغروب، وبدأت عقارب الساعة أخيرًا تقترب من السابعة.

ثم رن جرس الباب أخيرًا.

استأذنتني أم حسن لتفتح الباب، وابتسمتُ بمعنى أنه لا مشكلة، وعندما نهضتْ نحوه في تكاسل نفضتُ رأسي في قوة، كأني ألقي بكل ما قالته بعيدًا عن عقلي المثقل بالهموم والخواطر المزعجة.

ـ أهلًا يا أستاذ ممدوح.. حمدًا لله على السلامة.

حمدًا لله، لقد عاد أخيرًا.

ـ سلمك الله يا أم حسن.

هذا صوته، وهأنذا أنتفض ناهضة وأشرئب بعنقي جهة الباب.

ـ ما أخبار طفلي الشقي معك اليوم؟ هل أتعبك كالمعتاد؟

وسرت خطوات بطيئة نحو أم حسن، التي منعني جسدها البدين من رؤية عمي الواقف في مواجهتها.. ثم إني سمعتها تقول مغتبطة:

ـ على الإطلاق.. ليحرسه الله ويحميه من كل شر.

ـ آمين.

ـ بالمناسبة، لديك ضيوف يا أستاذ.

وشعرت بعمي يجفل للحظة برغم أني لا أراه، وسمعته يسأل في تعجب وأنا ما زلت أقترب حتى أتمكن من رؤيته:

ـ ضيوف؟! مَن؟!

أزاحت أم حسن نفسها عن الباب، وهي تقول مشيرة نحوي:

ـ ابنة أخيك من مصر

توقفت ناظرة في وجه عمي ممدوح المبهوت، وقد انفغر فاه وغمغم في غير تصديق بعد أن رآني.

ـ نسرين؟!

أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت أستعد نفسيًّا للمواجهة المرتقبة.

ـ أجل يا عماه.

وأردفت في جمود:

ـ أنا نسرين!

صمت لثوانٍ وكأنه يحاول ابتلاع الأمر، وقال مقتربًا مني ومادًّا يده للمصافحة:

ـ مرحبًا بك بالطبع.. متى جئت؟

نظرت إلى أم حسن في امتنان وأنا أجيبه:

ـ منذ ساعات.

قبَّلني ثم سألني في توجس:

ـ هل حدث مكروه لا قدر الله؟

ـ كلا.

ولم أكن دقيقة أو صريحة تمامًا في رد كهذا.. إن ما أعانيه يتجاوز هذا اللفظ الواهي الواهن البسيط؛ مكروه!

ـ لتتفضلي معي إذن إلى منزلي المتواضع.

قالها عمي وهو يتأبط ذراعي ويجذبني إلى الخارج، ثم التفت إلى أم حسن قائلًا:

ـ أشكرك شكرًا مزدوجًا هذه المرَّة يا سيدتي.

قالت أم حسن وهي تنظر نحوي مبتسمة:

ـ لا شكر على واجب يا أستاذ ممدوح، ولتعرجي عليَّ لتودعيني قبل أن تعودي إلى مصر يا نسرين.

ـ إن شاء الله.

٢٢

وقفت في شرفة منزل عمي أراقب الشارع الخالي من المارة بالأسفل، في حين انشغل هو قليلًا مع حمادة قبل أن يأتي إليَّ معتذرًا:

ـ آسف يا نسرين؛ لم أرحب بك كما يجب يا حبيبتي.

وباعد بين سبابته وإبهامه طوليًّا، عارضًا عليَّ واجب ضيافتي.

ـ هل أعد لك كوبًا من الشاي؟

هززت رأسي نفيًا وأنا أتأتئ، ثم قلت بلا انفعال:

ـ كلا، لا أريد.

كانت الأشياء تدور في عقلي كمروحة معلقة في طاحونة.. شعرت بالدوار والإعياء لكني غالبت نفسي وقلت:

ـ أنت تتساءل الآن بالتأكيد عن سبب مجيئي يا عماه.

هز كتفيه وقال:

ـ ليس بالضبط، فأنا أرحب بمقدمك في أي وقت تشائينه.. في الحقيقة أتساءل: لماذا لم تخبريني قبلها حتى أكون في استقبالك؟

قلت هازة كتفي بدوري:

ـ الأمر لم يكن ليحتمل التأجيل.

قال بنبرة غير مطمئنة:

ـ عسى ألا يكون هذا الأمر سيئًا.

قلت وأنا أحدق في عينيه مباشرة:

ـ هذا يعتمد على وقعه في نفسك.

تنهد عمي، وقال واضعًا يديه في جيبي بنطاله:

ـ في الحقيقة أنتِ تثيرين قلقي.. هات ما عندك مباشرة.

ألقيت بالقنبلة في وجهه دون أن أفكر أكثر:

ـ جئت أسألك عن أمي يا عمي العزيز!

وقعت العبارة عليه كصاعقة مفاجئة ومزعجة، فانعقد حاجباه بشدة وهو يهتف سائلًا إياي في استنكار:

ـ مَن؟!

عاجلته بالقول فورًا:

ـ أمي رحمها الله.. سعاد خورشيد!

لم يحر الرجل جوابًا، واستغرق في التفكير مليًّا قبل أن يعاود سؤالي بنفس الاستنكار:

ـ ماذا تقولين يا نسرين؟!

قلت عاقدة ساعديَّ أمام صدري في تحدٍّ لا مبرر له:

ـ أنا لا أخرِّف يا عمي.. كل ما هنالك أنني أريد أن أعرف كل شيء.

وأكدت على الكلمتين الأخيرتين:

ـ كل شيء!

سألني وقد استعاد دهشته الأولى:

ـ ما الذي حدث بالله عليك يا نسرين؟!

صحت وقد انفلتت أعصابي من عقالها مرَّة واحدة:

ـ حدث الكثير يا عماه.. الكثير جدًّا.. لست قادرة على أن أشرح لك أي شيء حتى لا تتهمني بالجنون.. كل ما أعرفه أنني فقدت قدرتي على الاحتمال.. فقدتها تمامًا!

فوجئ عمي بي وأنا أحدثه بهذه الطريقة، فصمت حتى أفرغ كل ما في جعبتي من توتر، ولعمري فهو ليس بالشيء القليل أبدًا.

ـ هذا كثير.. كثير جدًّا.

قلتها وصوتي يتهدج بالبكاء، ورفعت كفي لأخفي العبرات التي انسابت كأنهار فجرها الانفعال من مقلتيَّ.

كانت لحظات جد عصيبة، وكنت قد فقدت قدرتي على الاحتمال فعلًا، لا مجرد كلمات أقولها للاستهلاك أو لاستدرار العطف.

ووجدته يقترب مني، يطوقني بذراعه ويحتضنني في حنان أبوي جارف، فبكيت أكثر حتى ارتج جسدي وكدت أنهار.

ـ ش ش ش.. كفى يا حبيبتي.. كفى يا نسرين.

تمالكت نفسي بعض الشيء.. أخرجت من جيبي منديلًا ورقيًّا جففت به دموعي وأنفي، ثم سألته وأنا أتنفس بصعوبة:

ـ كانت أمي مريضة قبل أن تُتوفى.. أليس كذلك؟

نظر إليَّ مليًّا، وسألني بدوره:

ـ مَن أخبرك بهذا؟!

أخرجت له الأوراق التي حشوت بها جيوبي: التقارير والتحاليل

الطبية الكثيرة.. نظر فيها في غير فهم بينما قلت أنا وأنفاسي تنتظم بعض الشيء:

ـ لن تُصدق لو أخبرتك أن حمادة هو الذي ساعدني في العثور على هذه الأوراق!

نظر إليَّ مستغربًا، فأردفت ممعنة في استثارة استغرابه هذا:

ـ وأن أمي بنفسها هي التي تولت إخباري بالباقي!

قلب عمي شفتيه للحظات.. تبدى الارتباك والاضطراب والتردد على قسماته في جلاء. قبل أن يحسم أمره ويقول في النهاية:

ـ أجل.. كانت مريضة بالفعل.

وأردف متنهدًا:

ـ كانت تعاني من ورم في المخ؛ ورم خبيث لا شفاء منه إلا بمعجزة لم تتحقق!

لم يكن هذا بعيدًا عن مخيلتي أو توقعاتي.. إنه مرض له علاقة بتخصص أبي، وقد فشل أبي في تسخير الطب وقتها لتحقيق معجزة صغيرة من المعجزات التي يبرع في تحقيقها كل يوم مع مرضاه.

يا لسخرية الأقدار.

تذكرت أمرًا آخر فسألته:

ـ وكانت تعلم بما يتنامى بين أبي والسيدة ألفت همَّام! رئيسة تحرير «الأربعاء» التي أعمل محررة في جريدتها الآن؟!

حملت تنهيدته هذه المرَّة مرارة بلا حدود، وهو يجيبني بصراحة مطلقة:

ـ نعم!

وهز رأسه محدقًا في المدى كأنه يتذكر:

ـ كانت رحمها الله تعرف كل شيء!

هتفت وانفعالي يتصاعد مجددًا:

ـ قتلتها هذه الحقيقة قبل حتى أن تموت.

التفت نحوي وهو يقول على الفور:

ـ بل قضت أجلها عندما حان الموعد الذي اختاره المولى عزَّ وجلَّ.

قلت واضعة يدي على كتفه وقد تذكرت أمرًا آخر:

ـ هل هذا هو السر الذي استودعتك إياه يا عمي؟

أمسك بيدي داخل يديه الكبيرتين، وقال في نبرة عميقة محدقًا في عينيَّ:

ـ كانت أمك امرأة عظيمة يا نسرين، تعذبت كثيرًا في حياتها، وأرادت للجميع أن يستريحوا وأن يذوقوا ما ذاقته من ويلات.. كان مبلغ خوفها في أثناء حملها هو أن تلد جنينًا يرث منها المرض.. وأعطاها الله فتاة غاية في الجمال والطبيعة والصحة والنضارة، مكافأة على صبرها واحتمالها للشدائد.. لم تكره أحدًا في حياتها قَطُّ، كان قلبها يسع العالم كله حبًّا وعطفًا ورحمة وغفرانًا.. لكن حظها كان قليلًا.. والدنيا كانت بخيلة معها بقدر ما تبخل مع مَن يستحقون كل الخير.

قلت مأخوذة:

ـ كانت تقطر براءة في غابة الذئاب!

قال:

ـ لم يكن الأمر على هذه الصورة من البشاعة.

قلت في إصرار:

ـ أريد أن أعرف كل شيء يا عماه.. لن أستريح قبل أن أصل إلى الحقيقة.

تنهد، وازداد ضغطه على يدي داخل يديه وهو يقول:

ـ ليكن.. سأروي لك كل ما أعرفه إذن.

خفق قلبي في قوة، هأنذا أقترب كثيرًا من الحقيقة التي أصبو إليها.

ـ سأعد كوبين من الشاي أولًا، ثم نتحدث كيفما شئنا.

لم أعترض هذه المرَّة، وتركته يذهب.

وقفت أستنشق الهواء الرطيب وقد تسللت بعض الراحة إلى أعماقي أخيرًا.

ربما لن يكون حديث عمي شافيًا، لكنه سيضع الكثير من النقاط على أغلب الحروف، والبقية سوف تأتي عندما أرى أبي والسيدة ألفت.

هأنذا أقترب خطوة منك يا أماه.

ها هو ذا وجهك يتراءى لي في المدى باسمًا، فتكاد عيناي تطفران بالدمع.

ها هوذا...

رنين هاتفي المحمول المنغوم، يأتيني لأول مرَّة منذ أيام.

قبلت المكالمة دون أن أنظر إلى الرقم الوارد، فلم أكن في حالة تسمح بالتركيز في أي شيء.

ـ آلو.

ـ مرحبًا يا صغيرتي.

إنه هو، الظل!
صوته المميز الأجش و«صغيرتي» التي هي أنا.
ـ أنت؟!
ـ أجل، هو أنا.
سألته بكل اللوعة التي اعتملت في أعماقي الثائرة:
ـ مَن تكون؟! وما الذي يحدث لي؟! ماذا يحدث ها هنا؟!
أتاني الصوت في أداء كلاسيكي:
ـ أخبرتك من قبل.. أنا لست أعرف ما تجهلين.
صحت به في حنق:
ـ ماذا تريد مني إذن بحق لعنات الجحيم؟!
قال في روية:
ـ أريد أن أساعدك على اجتياز هذه المحنة.
ـ وماذا بيدك أن تفعل لي؟!
ـ سأقابلك.. هيا، فالوقت ضيق يا صغيرتي كما هو دومًا.
ـ أين؟!
ـ في قصر البارون!
صحت مستنكرة:
ـ ولكني في الإسماعيلية الآن!
قال دون أن يفقد هدوءه:
ـ أعرف، وأراك الآن واقفة في شرفة عمك ممدوح الجبالي في الطابق الثالث!
إن لم أكن قد جُننت بالفعل فأنا الآن على حافة الجنون!

أمعنت النظر في الشارع الخالي من المارة ولمحت ظلًّا يبتعد خلف مبنى قريب.

أيكون هو؟!

ـ لا تتأخري عن الساعة الثانية عشرة يا سندريلًّا.

نظرت في ساعة معصمي، إنها لم تبلغ الثامنة بعد.

ـ والبوابات؟!

ـ أي بوابات؟!

ـ بوابات قصر البارون الموصدة؟!

ـ كوني هواء، ولن يعترض طريقك شيء.

ثم إنه لم ينس أن يردف:

ـ إن تأخرت يا سندريلًّا فلن تلتقي بالأمير مطلقًا.. وسيطمر السر في التراب إلى أبد الآبدين.

وأضاف أخيرًا:

ـ إلى اللقاء يا صغيرتي.. هناك!

انغلق الخط، وشردت للحظة، ثم قررت أن أتحرك على الفور.

عندما عاد عمي إلى الشرفة حاملًا صينية عليها كوبان من الشاي، هتف بأريحية:

ـ هل كنت تتحدثين مع خطيبك في الهاتف المحـ...؟

وبتر عبارته عندما لم يجدني هناك.

التفت نحو باب الشقة فوجده مواربًا إذ هبطت دون حتى أن أغلقه.

أكثر من هذا.. رآني عبر الشرفة وأنا أدلف إلى سيارة أجرة في سرعة، فناداني بصوت مرتفع:

ـ نسرييييين!

ربما سمعته، ربما لم أسمعه.. لا أذكر تحديدًا.

كل ما أتذكره هو أنني قلت للسائق:

ـ محطة الباص من فضلك.

ولم أنسَ أن أردف:

ـ بسرعة!

انطلقت السيارة، في حين قطب عمي ممدوح الواقف في الشرفة، ولعله غمغم في قلق بلا حدود:

ـ إلى أين ذهبت؟

ولعله لم ينس أن يردف:

ـ هذه المجنونة؟!

٢٣

أطول ساعتين مرتا عليَّ في حياتي بأسرها.

شعرت بأن مسافة طريق العودة من الإسماعيلية قد تضاعفت عشرات المرَّات، وأخذت أنظر في ساعة معصمي بمعدل مرَّة كل عشر ثوان تقريبًا خوفًا من التأخير.

وبين النظرة والأخرى، كنت أفكر و«الأدرينالين» يفعل بي أفاعيله.

بالتأكيد سأجد مفاتيح اللغز كلها وقد تجمعت بين يدي ذلك الظل الغامض الذي يقتفي آثاري ويعرف كل شيء عني.

تُرى هل سأراه رأي العين هذه المرَّة بعيدًا عن عالم الرؤى والتجليات؟

هل يستحق الأمر التضحية بالقصة التي كنت سأسمعها من عمي، والتي تضمن لي على الأقل بعض التوضيح؟

بالتأكيد الأمر يستحق المجازفة.

إن عمي ممدوح موجود دائمًا، يمكنني سماع قصته في أي وقت أشاء، وأن أطلب منه تكرارها مئات المرَّات.

أما الظل فقد اصطفاني لمقابلته شخصيًّا، وجهًا لوجه، في قصر البارون.

فأي جنون وأي عبث!

يدلف الباص إلى محطته في الترجمان، فأهبط منه على عجل وأشير لسيارة أجرة توقف سائقها على الفور.

ربما تستحق الحقيقة كل هذه الثروة التي أنفقها في سبيل مواصلاتي إليها!

ـ قصر البارون من فضلك.

عقد السائق حاجبيه، واستدار نحوي قائلًا في استفهام:

ـ تقصدين فندق البارون بمصر الجديدة؟

هززت رأسي نفيًا في قوة، وقلت موضحة في تأكيد:

ـ بل قصر البارون نفسه على طريق صلاح سالم!

استغرق هضم المسألة من الرجل لحيظات، قبل أن يقول في تسليم:

ـ حسنًا.

وسمعته يغمغم وهو يستدير محركًا ناقل السرعات:

ـ لله في خلقه شؤون!

سمعتها برغم صوت المحرك العالي، لكني لم أشغل بالي إلا بأمر واحد؛ لقد جئت مبكرة عن الموعد المحدد بساعة ونصف تقريبًا.

ستنكشف الأستار أمامي إذن.

صحيح أن العاشرة والنصف يعد وقتًا متأخرًا نسبيًّا بالنسبة لعودة فتاة محافظة مثلي إلى المنزل، لكن.. ليس هناك من سيزعجه تأخيري أو يقلق لعدم عودتي في مثل هذه الساعة.

خطيبي في المنيا، وأبي في «مونتريال»، وأمي بجوار الرفيق الأعلى!

وصحيح أني من هواة الالتزام بعيدًا عن أي سلطات رقابية، لكن.. سأكسر القواعد اليوم فقط، عسى أن تحمل لي الساعات ـ وربما الدقائق ـ القادمة بعض التفسيرات التي تشفي غليلي.

اليوم فقط؛ فمَن يدري؟!

* * *

اقتربت من القصر دون أن أعبأ بأي نظرات محتملة قد تلاحقني من المارة أو من سكان البنايات المجاورة.. ودون أن أفكر للحظة واحدة في التراجع.

القصر ما زال شامخًا.. صامتًا.. مهجورًا.

ومخيفًا.

تجاوزت البوابة الحديدية، لا أعرف كيف، وسرت كطيف على الأرض الترابية التي قادتني نحو السلم المرتفع المؤدي لبوابة القصر الداخلية.

ارتجف قلبي من برودة الليل والخوف، لكني من جديد لن أفكر في التراجع.

ليس بعد أن بلغت هذا الحد.

صعدت الدرجات الرخامية نحو البوابة العالية، بحثت عن الحلقة المعدنية التي قادتني في المرَّة السابقة نحو القبو حيث «إخوة الدم» المرعبون، غير أني لم أجدها.

الظلام يجعل المسألة صعبة ولكن...

يبدو أنني لن أحتاج إلى سلالم حجرية هابطة هذه المرَّة؛ فقد انفتح باب القصر المنيف أمامي فجأة، ومن قلب الظلام ولد ضياء أبيض أعماني عن الرؤية للحظة، وشعرت بالريح التي هبت من الداخل في قوة.

فتحت عيني في النهاية، لأرى القصر الذي أضاء من الداخل.

لم يكن أطلالًا مهجورة كما توقعت أن أراه.

كان نسخة طبق الأصل من القصر الذي رأيت فيه مسبقًا حفل الزفاف، لكن القاعة الواسعة التي تنتهي بالسلم العريض خاوية على عروشها هذه المرَّة.

كانت الستائر تتطاير، وشعري أيضا، ولم أجد للرياح مكانًا يمكن أن تهب منه، غير أنني لم أشغل نفسي بهذه النقطة كثيرًا.

لقد تقدمت إلى داخل القاعة في خطوات بطيئة، كأنني مدفوعة للدخول بقوة جذب مغناطيسية أكبر من أن أقاومها.

سرت على الأرض الرخامية، بين المقاعد الوثيرة والتماثيل النفيسة.. وهناك، عند قمة السلم العالي، وأمام صورة الباشا الأرستقراطي مباشرة رأيتها.

وعرفتها.

إنها أمي.

إنها سعاد.

تقف باسمة وتمد ذراعيها في ترحيب:

ـ أهلًا بك.. يا صغيرتي!

رداؤها الأبيض الطويل وشعرها الليلي المتناثر يتطايران مع الهواء، ملامحها نبع من الهدوء والرقة والملاحة، على رأسها هالة

ضوئية، وفي يدها عصا قصيرة تنتهي بنجمة ذهبية، مثل جنيات القصص الخيالية التي لم يقصها على مسامعي أحد.

في انبهار بلا حدود واصلت التقدم، وهتفت مشيرة إليها بسبابتي:

ـ إنه أنت إذن.. وأخيرًا.

قالت ملوحة بعصاها السحرية:

ـ هي أنا يا ملاكي الجميل.

تلفت حولي وأنا أسأل في ارتباك:

ـ لا يمكن أن يكون هذا حقيقة.. أنا أحلم.

قالت بابتسامة تفيض حنانًا:

ـ ستعلمين يومًا أن الفارق بين الحلم والحقيقة ضئيل لدرجة لا يمكن ملاحظتها أحيانًا.

ـ الجنون هو عدم القدرة على التمييز بينهما.

قالت والضوء يتناثر ذرات من حولها:

ـ رب حكمة ينطق بها مجنون!

اعترت كلماتي خيبة الأمل وأنا أقول:

ـ رأيت كل شيء لكني لم أفهم الكثير.

قالت بلهجة المعلم:

ـ ذلك لأنك رأيت كل شيء منعكسًا على مرآة عقلك.

ـ وما العيب في ذلك؟!

ـ كثيرًا ما يضلل العقل صاحبه!

قلت وقد انبثق بصيص من النور في ظلمة أعماقي المدلهمة:

ـ لم يحدث شيء مما رأيت إذن.

وقالت وهي تلوح بعصاها يمنة ويسرة:

ـ نحن لا نرى ولا نسمع ولا نلمس ولا نعي إلا ما تسمح به حواسنا الإنسانية القاصرة، وهذا ما يعمينا دائمًا عن رؤية قلب الحقيقة مهما كان قريبًا.

قلت مأخوذة:

ـ أقصد أنها كانت محض رؤى لم تحدث.

عادت تلوح بعصاها قائلة:

ـ بل حدثت.. وأنتِ رأيت كل شيء، وفسرته بعقلك كما يفعل الناس جميعًا.. المأساة أننا لا نعيش الحياة ولا نحسها إلا من خلال هذا العقل الضال المسكين!

سألتها وقد اختلط عليَّ الأمر:

ـ كل ما حدث قد حدث في عقلي فقط إذن.. أهذا ما تعنينه؟

قالت وقد فردت ذراعيها وأخذت ترفعهما إلى أعلى ببطء:

ـ ما الحياة في واقعها إلا ما تصوره لنا عقولنا.. وهكذا نقع دائمًا في مأزق التفريق بين النقيضين.. الواقع والخيال.. الحلم والحقيقة.. الممكن والمحال.

قلت في استجداء وقد عجزت عن إدراك كل ما تقول:

ـ أخبريني إذن عن تفسير كل ما رأيت وسمعت.

قالت ولما يهبط ذراعاها بعد:

ـ التفسير قابع في نقطة مظلمة ما من أعماقك يا فتاتي.. وقد اقتربت كثيرًا حتى إنني أخشى عليكِ من الاحتراق في نيران المعرفة.

قلت ونبرتي تتهدج:

ـ ساعديني إذن!

ـ لست هنا إلا لأساعدك!

ثم فردت ذراعيها فجأة، وتناثرت من عصاها السحرية ذرات ضوئية كثيرة، تجسدت حولي على هيئة صور مرئية.

وتلفت حولي مبهورة لأقصى حد.

رأيت «إخوة الدم» جميعًا: نهى، وصلاح، وجميلة، وسامي، والباقين ذوي الوجوه المألوفة.. رأيت أبي، وعمي، وحمادة، وهشام، وصديقات وأصدقاء الكلية.

رأيت الدادة رئيفة، والعم خضر البواب.. رأيت عشرات الوجوه التي رأيتها من قبل في أماكن كثيرة، منها ما أتذكره، ومنها ما لم تسعفني بمعرفته الذاكرة.

ورأيته بين الوجوه، غارقًا في الظل، والصمت.. وبرغم تحديقي فيه بإمعان إلا أني عجزت عن إيجاد ملامح خاصة به.

بدا مَن حولي يتحركون في كل اتجاه كأنهم يمارسون حيواتهم العادية، إلا هو.. كان ثابتًا في مكانه لا يحرك ساكنًا، كأنه صورة ثنائية الأبعاد مرسومة بالفحم على جدار الفراغ.

واستدرت إلى أمي مجددًا أقول:

ـ الظل ليس أنتِ.. ظننتكِ في النهاية هو.

قالت وهي تستعيد بسمتها الرؤوم:

ـ كل هؤلاء ليسوا إلا صورًا تتحرك داخل خلاياك.. داخل تركيبك الجزيئي.. داخل الذرات الدقيقة المتناهية في الصغر التي يتكون منها عقلك وجسدك.. وتنأى عنها روحك بتركيب أنقى.

قلت بنبرة طفولية حزينة:

ـ لست أفهم!

قالت:

ـ ولن تفهميني ما لم تغتسلي في مياه بحيرة الحقيقة.

سألتها في لهفة:

ـ وأين أجد هذه البحيرة؟

قالت ملوحة بعصاها:

ـ يفضي إليها باب واحد موجود في قبو القصر.

قلت بحماسة شديدة:

ـ سأذهب.

قالت في شفقة:

ـ أخشى عليك من مغبة الاندفاع دون تفكير

ـ أريد أن أعرف، أرجوك يا أماه!

ـ الاختيار بيدك، وسيزفك كل مَن حولك كالعروس حتى القبو.

وفرقعت بإصبعيها السبابة والإبهام، فانتظم كل مَن حولي في صفين، ورأيتهم يمسكون بشموع مضيئة لا أدري من أين أتوا بها.

إلا هو، ظل صورة ثنائية الأبعاد مرسومة بالفحم على جدار الفراغ.

رفعت عيني إلى أمي السحرية وسألتها في شجن.

ـ ألن تأتي معي؟

قالت وقد تلاشت بسمتها:

ـ ليتني أستطيع.

دنوت من السلم وأنا أسألها من جديد:

ـ ألا أستطيع الارتماء في حضنك الدافئ، ولو لمرَّة واحدة؟!

ترقرقت الدموع على زجاج عينيها الملائكيتين، ثم قالت في ألم مكتوم:

ـ مع الأسف، هذا غير ممكن على الإطلاق يا صغيرتي.. يتمزق قلبي وأنا أقولها، لكن نواميس الكون غير قابلة أبدًا للاختراق!

عدت أسألها وأنا أجاهد حتى لا أبكي:

ـ أين أنتِ الآن إذن؟

حاولت أن تبتسم وهي تجيبني في سعادة:

ـ في أجمل مكان يمكن أن يذهب إليه إنسان على وجه البسيطة.

ثم غمزتني وأردفت:

ـ ستعرفين يومًا ما أعنيه يا صغيرتي.

ـ قبل أن أذهب.. هل أنت غاضبة من ألفت؟

فكرت قليلًا ثم أجابتني في صدق:

ـ كلا.. على الإطلاق.. إنها لم تخطئ في حقي قَطُّ.

ـ وأبي؟

أجابتني في حنين:

ـ إنسان من معدن نادر الوجود هذا الرجل.

ـ والظل؟

ابتسمت وقالت:

ـ لا تتذاكي عليَّ يا فتاة.. لست أحمل إجابات شافية عن كل الأسئلة.

عدت أسألها في إصرار:

ـ الظل الذي داهمك في غرفة النوم عندما كنت لا أزال رضيعة؟
قالت وهي تتلاشى رويدًا رويدًا من أمامي:
ـ عليَّ أن أعود الآن.
ـ انتظري قليلًا.
ـ إلى اللقاء يا نسرين.. انتبهي لنفسك جيدًا يا صغيرتي.
هتفت بها في نبرة عالية:
ـ ستبقين إلى جواري دومًا لتحرسيني.. أليس كذلك؟!
قالت وهي تشير إلى الظل:
ـ سيتولى هو ذلك على خير وجه.. إلى اللقاء.
وقبل أن تتلاشي تمامًا، قالت كلمة أخيرة:
ـ وسنلتقي بالتأكيد في يوم ما.. سنلتقي يا ابنتي الـ...
وذهبت قبل أن تكمل عبارتها.
لا شيء جميل يكتمل في هذه الحياة القاسية.
لا شيء البتة.
والتفت إلى مَن حولي، لأراهم جميعًا.
كلهم إذن إخوة في الدم.
كلنا في الدم إخوة.
أبي وخطيبي وأصدقائي وكل مَن أعرف.
كلهم مغيبون.
كلهم لا ينظرون إلا للمدى المفتوح.
للأفق البعيد.
بعضهم يتقدمون إليَّ ويحملونني فوق الأكتاف، كأنني في مظاهرة

لا ينقصها إلا الهتاف.. وأتقدم أنا الموكب ـ محمولة على الأعناق ـ نحو السلم الهابط إلى أسفل.

إلى القبو.

يغيب الضوء إلا من ذبذبات الشموع.

ولا أدري من أين يتصاعد قرع الطبول.

في القبو، اتجه كل أخوين نحو جمجمة مثبتة في الحائط، ووضع كل منهم شمعة في إحدى عينيها، فبدا المنظر مرعبًا بحق.

طقوس تليق حقًا بإخوة جمعهم الدم، في رابطة أشد وأقوى وأكثر تماسكًا من رابطة الدم.. وعلا إيقاع الطبول المتصاعد من اللامكان.

على الأعناق لا أزال محمولة، يتجهون بي بين صفين متوازيين نحو باب وحيد في نهاية القبو.

الباب المفضي إلى بحيرة الحقيقة بلا ريب.

لن أكون أقل شجاعة من «أوديب»، ولن تبلغ العواقب مهما كانت سيئة تلك التراجيديا التي وجد صديقنا الإغريقي نفسه بطلًا لها.

أنزلوني أمام الباب وابتعدوا.. وانطلقت من حناجرهم ترنيمات تليق بجلال الحدث.

وقرع الطبول ما زال يعلو.. ويعلو.. ويعلو.

حتى انفتح الباب فجأة في انفجار كالقنبلة، فانبطحوا جميعًا أرضًا.

إلا أنا.

لقد امتصني تيار شديد.

وبرغم أن ثانية واحدة هي التي فصلت ما بين انفتاح الباب وامتصاص التيار لي، إلا أنني رأيت بحيرة الحقيقة.

بحيرة من نيران مشتعلة هي، تسبح فيها وحوش خرافية، أفواهها مفتوحة استعدادًا لوليمة بشرية آتية.

حاولت أن أتشبث بحافة الباب لكن التيار استمر يجذبني.

قاومت حتى كادت عضلاتي تتمزق.

وفي النهاية، استسلمت.

انفكت أصابعي المتشبثة بحافة الباب.

وطرت مع التيار بعيدًا.

نحو بحيرة الحقيقة..

النارية.

٢٤

من بحر الظلام أولد.

من جنة الحالمين أعود.

ومن هناك.. تحملني أجنحة الموج إلى...

هنا!

* * *

ـ بدأت تفيق على ما يبدو

ـ جيد.

عيناي تتفتحان لكن الصورة مشوشة؛ تشبه ما نراه على شاشات التلفاز عند وقوع هوائيات الاستقبال فوق السطوح!

أسمع أصواتًا مألوفة.. وتبدأ منطقة تمييز الأصوات داخل جمجمتي في عملها المعقد.

ـ لا يوجد خطر إذن؟!

هذا صوت عمي ممدوح.

نعم هو...

متى أتى وكيف ولماذا و...؟

ـ إنها تهوى دائمًا تعريض نفسها للخطر!

هذا هشام!

لقد عاد إذن من المنيا، هذا صباح اليوم الرابع لسفره ومن الطبيعي أن يكون قد عاد.

واضح أن موقفي حرج جدًّا!

ـ أعتقد أن معدلاتها الحيوية مستقرة كما يوحي المظهر وقياس النبض.

أما هذا الرجل الجالس على حافة السرير الذي أرقد عليه في سكينة، والذي يمسك برسغي داخل قبضته، ناظرًا في ساعته، ومتحدثًا بنبرة جهورية تليق بأستاذ جامعي مخضرم، وبلهجة تفوح منها روائح الريف البعيد.. فهو ليس إلا

الدكتور مشهور فراج بنفسه!

نعم.. الصورة التي أراها تتضح تدريجيًّا، كما تتضح على شاشات التلفاز بعد أن نعدل من وضع الهوائيات الساقطة فوق السطوح.

ها هو ذا بملامحه الهندسية وشعره الفضي وحاجبيه الأسودين مرتديًا واحدة من حلله الأنيقة اللامعة.

ـ صباح الخير أيتها الجميلة!

قالها عمي ممدوح باسمًا، ها هو ذا جالس على مقعد في الركن، مبتسم في أبوة دارت علامات الإجهاد المحفورة على قسماته، وعاقد ساعديه أمام صدره.

ـ صباح الخير.

غمغمت بها في نبرة خفيضة جدًّا، ثم بدأت في إدراك ما حولي.

أنا في إحدى حجرات مستشفى أبي، وضوء النهار البكر يلمع من بين خصاص النافذة المسدلة.

لقد ذهب الليل إذن إلى غير رجعة.

وانبلج فجر الحقيقة!

الدكتور مشهور بجواري مشغول بقياس النبض، وعمي ممدوح جالس هناك، أما عن هشام فقد كان واقفًا بجوار باب الدخول.

سألني في غضب فور أن وقعت عيني عليه:

ـ ماذا كنت تفعلين أمس في قصر البارون؟

طريقة ممتازة ليعبر بها عن مدى افتقاده لي في أثناء سفره!

لم أقوَ على الرد، وربما لم أجد الرد المناسب، فتولى عمي ممدوح الأمر عني مشكورًا بقوله:

ـ دعها تسترد وعيها كاملًا أولًا

سألت بصوت واهن، وكان سؤالي موجهًا للجميع:

ـ ماذا حدث؟

قال الدكتور مشهور وهو يضع يدي إلى جانبي في رفق:

ـ ربما تخبريننا أنتِ.. فكلنا لا نستوعب شيئًا مما حدث!

قال هشام مؤيدًا، وقد أعطاه قول الدكتور فرصة مثالية للانفجار:

ـ هذا صحيح.. لقد عدت قبيل منتصف الليل من المأمورية في الصعيد، وهاتفتك مرارًا في المنزل وعلى المحمول لكن أحدًا لم يرد.

سأعاتبه فيما بعد على عدم اتصاله بي واطمئنانه عليَّ ولو لمرَّة واحدة في أثناء غيابه.

ـ أتيت إلى هنا فأخبروني بسفر الدكتور فجر أمس، يممت شطر المنزل وأنا أكاد أُجن لأجد الأستاذ ممدوح بالأسفل لا يدري هو الآخر ماذا يفعل!

وقال عمي راويًا الأمر من وجهة نظره:

ـ أتيت خلفك من الإسماعيلية بعد أن تركتني فجأة دون سابق إنذار ودون مبرر، لقد سمعتك وأنت تتحدثين في المحمول بصوت مرتفع، وبعدها رأيتك تركبين سيارة أجرة عند نهاية الشارع.. خفت أن يكون في الأمر مكروه، فبدلت ملابسي وهرعت إلى أقرب سيارة أجرة بين المحافظات، وذهبت إليك في المنزل لكني لم أجدك.. فقررت انتظارك بالأسفل عند مدخل البناية حتى تعودي.

وتابع هشام:

ـ حتى جاءني ذلك الهاتف على محمولي.

ممن؟! كدت أسأل، لكن هشام تابع كرشاش لا يتوقف عن إطلاق رصاصاته:

ـ ضابط زميل في المباحث قال لي إنهم قد تلقوا بلاغًا من مجهول يفيد بأن خطيبتي ترقد الآن فاقدة الوعي داخل القاعة الرئيسية المهجورة من قصر البارون!

آسفة يا هشام على ما سببته لك من حرج بين زملائك، ربما تعذرني عندما أقص عليك كل ما حدث لي!

ـ ذهبت أنا والأستاذ ممدوح في سيارتي على الفور إلى هناك.. دخلت بسُلطة الشرطة، ووجدتك بالفعل ساقطة على بعد

خطوات من باب الدخول الكبير.. حملناك بسرعة إلى هنا خشية أن...

سألت في دهشة مقاطعة إياه:

ـ لم أكن في القبو إذن؟!

أغاظ سؤالي هشام إلى حد أنه انفجر فيَّ صائحًا:

ـ أي قبو؟! ماذا كنت تفعلين هناك؟!

ثم انتبه إلى أنه يتجاوز قواعد التهذيب المتعارف عليها، فلاذ بالصمت وإن احتقن وجهه أكثر، في حين قال الدكتور مشهور وقد أتى دوره في رواية القصة:

ـ أما أنا فقد وجدت هاتفي يرن في الخامسة صباحًا، وكان المتحدث هو صديقي الدكتور فاروق الجبالي، يطلب مني الحضور إلى مستشفاه فورًا لأن ابنته في أمس الحاجة إليَّ!

غرقت في الصمت والذهول بينما تابع هو:

ـ ولم أستطع التأخر قَطُّ عن صديق عمري.. أو عن ابنته.

قلت دون أن أنجح في التغلب على ذهولي:

ـ لكنه في «مونتريال»!

قال باسمًا في وقار:

ـ هذا ما يحاولون إقناعي به ها هنا!

هنا انفتح باب الغرفة، ومن الخارج برز شخص أعرفه.

ـ صباح الخير.

شاب برأس حليق تمامًا، وعوينات صغيرة مستديرة وملونة، وجلد مشدود يلمع كأنه مدهون بالورنيش.

ـ هل هذه غرفة الآنسة نسرين الجبالي؟

يرتدي هذه المرَّة ملابس عادية، قميص وبنطلون كلاسيك، غاية في الأناقة والتناسق.

ـ مَن تكون؟!

سأله هشام الواقف بجوار الباب في سماجة.

ـ سامي تيمور.

أجاب بابتسامة، فالتفت الدكتور مشهور نحوه في استغراب.

ـ هل من خدمة نقدمها لك يا سيدي؟

قالها عمي ممدوح، فقال سامي وبسمته تتسع:

ـ إنني مدعو للحضور.

ـ ومَن دعاك؟!

سأله هشام بفظاظة تجاوزت حدودها، فقال سامي ببساطة:

ـ لا أدري، شخص ما هاتفني فجرًا وأخبرني أن الآنسة نسرين الجبالي تنتظرني في العنوان التالي، وأعطاني عنوان المستشفى ورقم الغرفة!

سأله الدكتور مشهور في سخرية:

ـ أنت أيضًا؟

بكل الاحترام حياه سامي قائلًا:

ـ صباح الخير يا دكتور مشهور.. إنه لمن دواعي سروري أن ألقاك مرتين في أسبوع واحد!

ـ الشرف لي يا سيدي!

عاد هشام يسأل سامي كأنه يستجوبه في تحقيق رسمي:

ـ ومَن هذا الذي هاتفك ودعاك للحضورك إلى هنا؟!

قال دون أن يضجر:

ـ صدقًا لا أعرف!

وقلت أنا في ترحيب:

ـ تفضل يا سيد سامي على الرحب والسعة.

قال سامي وهو يدخل مغلقًا الباب خلفه:

ـ أنت نسرين؟

ـ أجل.

وقال هشام داعيًا إياه بإشارة من يده للجلوس:

ـ لا يوجد هنا مَن يصلح لحمل هذا الاسم سواها على ما أعتقد!

ـ سيد سامي.. هلَّا طلبت منك أمرًا؟

ـ مُريني.

قالها قبل أن يجلس، فقلت على الفور:

ـ اقترب مني إذا سمحت لي.

كنت أعرف أنني أستثير غيرة هشام، لكني لم أضع هذا في حسباني وسامي يقترب حتى وقف بجوار السرير تمامًا.

ـ أرني إبهامك اليسرى إن أذنت لي.

ـ ولماذا؟!

سأل سامي وهو يرفعها بالفعل، وابتسمت أنا في أعماقي مغمغمة:

ـ كما توقعت!

لم تكن إبهامه تحمل آثارًا لجروح من أي نوع!

ـ تفضل اجلس.. وستعلم كل شيء!

عاد سامي إلى مقعده مستغربًا، في حين نظر الدكتور مشهور إليَّ قائلًا بنبرته الجهورية الحازمة:

ـ أعتقد أنك مدينة لنا جميعًا الآن بالكثير من التفسيرات!

ـ هذا حقيقي، ولكن...

صمت للحظة نظرت فيها في الوجوه الأربعة الشاخصة إليَّ في ترقب، ثم تابعت:

ـ إنها قصة طويلة!

قال الدكتور مشهور:

ـ الطب النفسي يعلم مَن يمتهنه فضيلتي الصبر والاستماع.

وقال سامي:

ـ وعلم الروحانيات كذلك.

وقال هشام:

ـ ماذا أقول عن الشرطة؟! إنها تعلم الكثير كذلك.

أما عمي ممدوح فقال:

ـ اسأليني أنا عما تلقنه الحياة عمومًا من دروس للإنسان.

تنهدت تنهيدة طويلة، ثم قلت في النهاية:

ـ ليكن.

وشرعت على الفور في رواية كل ما حدث عبر الأيام الثلاثة الماضية.

رويت كل شيء دون أن أهمل تفصيلة واحدة، منذ زيارة عمي ممدوح، وعبث حمادة الذي دلني على حاجيات أمي القديمة، ثم استخدامي لحاجياتها والتغيرات التي طرأت على سلوكي بعدها، ثم

لقائي بنهى وصلاح وجميلة، وذهابي للقصر في المرَّة الأولى حيث التقيت بالسيد سامي و«إخوة الدم»، ثم غرقي في عالم الخيالات وما رأيته فيه، حتى لقائي الأخير بأمي وقراري بالسباحة في بحيرة الحقيقة!

ذاكرتي كانت تحفظ كل شيء، لأن عقلي كان يروم تفسيرًا لكل شيء.

ـ ثم أفقت لأجد نفسي ها هنا.. هذا كل ما حدث!

وران الصمت، فلم أسمع صوتًا باستثناء الأنفاس المبهورة!

تلاقت العيون في نظرات جانبية، وغرقت بعضها في بحور التأملات، في حين انغلقت بعضها مسافرة بعيدًا.

كان هشام هو أول القائلين:

ـ هل تريدين رأيي بصراحة؟

أومأت له أن نعم، فقال بلهجة لم أميز مغزاها:

ـ لقد جُننتِ يا حبيبتي لا محالة!

ـ أشكرك.. ما رأيك أنت يا عماه؟

فتح عمي ممدوح عينيه المغمضتين، وتردد طويلًا قبل أن يقول في عمق:

ـ رأيي؟! رأيي أن ما سمعته مفزع يا نسرين!

ـ مفزع؟!

نطقتها باستنكار، فأكد على ما قال:

ـ وبشدة!

سأله هشام:

ـ ما المفزع فيه تحديدًا يا أستاذ ممدوح؟ تعني الجزء الخاص بالإخوة والقصر والشموع والجماجم و...

هز عمي رأسه في قوة وقال مقاطعًا:

ـ كلا، بل الجزء الخاص بالرؤى.. فهو دقيق إلى حد لا يوصف!

سألته مأخوذة:

ـ حقًّا؟!

ـ وكأنك شاهدت كل شيء وقت حدوثه بالفعل يا نسرين!

أيده الدكتور مشهور بقوله:

ـ لا يسعني إلا أن أشهد بهذا بشأن الجزء الذي رأيته في عيادتي النفسية.. لقد رويته بأدق مما أتذكره أنا نفسي!

غمغم هشام بنبرة خفيضة سمعتها بصعوبة:

ـ لم أتوقع هذا!

وعاد عمي ممدوح يقول:

ـ كل شيء في موضعه لولا الترتيب.. لقد قلت لعمي إبراهيم رحمه الله في حفل زفاف أخي إنني لن أتزوج إلا إن وجدت مَن تركع تحت قدميَّ بالفعل.. ويوم أن طلبت سعاد رحمها الله أن تلقاني لآخر مرَّة قبل أن تتوفى كنت مسافرًا للإسماعيلية.. حتى التفصيلة الدقيقة الخاصة بدخولي على فاروق حاملًا المجلة، كنت وقتها أملك نسخة من مفتاح المنزل، إذ كنت مَن يتولى رعاية شؤونه في أثناء غياب فاروق وسعاد في المستشفى للاطمئنان على أحوال سامر!

وأثار الاسم الأخير حفيظتي.

ـ مَن؟!

هتفت بها وأنا أعتدل من نومتي كأن عقربًا لدغتني، فانعقد حاجبا عمي وهو يسألني في توجس:

ـ ألم تري كل شيء؟!

قال الدكتور مشهور هازًّا رأسه في تفهم:

ـ ربما ظلت هناك علامات استفهام كثيرة.

هتفت وقد بلغ بي الانفعال مبلغه:

ـ مَن سامر هذا؟!

هز عمي ممدوح رأسه متفهمًا هو الآخر، وقال مهدئًا إياي:

ـ دعيني أروي لك القصة من البداية، وقد يصلح الدكتور مشهور ما أقع فيه أنا من أخطاء.

هز الدكتور مشهور رأسه في موافقة، وتنحنح هشام قائلًا في حرج:

ـ سأستأذن أنا إن كان في الأمر خصوصيات عائلية!

هتفت به:

ـ بل ابق.. من حقك أن تعلم عني كل شيء!

سأل سامي في براءة:

ـ ماذا عني؟

ـ ستبقى أنت أيضا.

ونظرت إلى عمي ممدوح:

ـ والآن؟

وشرع على الفور في رواية القصة التي دارت فصولها منذ أكثر من عشرين عامًا.

٢٥

قال عمي ممدوح:

ـ تم التعارف بين فاروق وسعاد في إحدى المستشفيات التي انتُدب فيها للعمل جراحًا، بينما كانت تتولى هي الإشراف على الأدوية والمعدات الطبية الواردة إليها، أدى «كيوبيد» واجبه معها على أكمل وأجمل وجه، لكن عائلة «خورشيد» رفضت تزويج درة بنات العائلة لشاب من الطبقة الوسطى حتى لو كان طبيبًا ناجحًا وماهرًا.. أصرت الفتاة فلم تجد العائلة بديلًا عن الموافقة.. وتم الزواج في قصر أبيها الأسطوري بالمنصورية كواجب أخير تجاهها، وحفظًا لماء الوجه العائلي أمام أبناء طبقة الأثرياء العريقة والجديدة التي أفرزتها السبعينيات.. وبعدها كانت القطيعة.. لم تكن حربًا درامية كالتي نشاهدها في الأفلام بينهم وبينها بقدر ما كانت جفاءً وابتعادًا وإهمالًا وهكذا خرجت سعاد من جنة العائلة الثرية إلى جنة أخرى أخذت تبنيها مع فاروق خطوة فخطوة.. ويدًا بيد.

وتابع عمي ممدوح:

ـ حملت سعاد في جنينها الأول.. ومع أعراض الحمل الطبيعية كالغثيان والقيء بدأت تشعر بصداع متكرر غير محتمل، واضطرابات في الرؤية وفي النوم.. شعرت بالقلق مع استمرار الأعراض وزيادتها حتى الشهر الخامس، فقررت أن تذهب من فورها إلى طبيب للكشف الكلي على جسدها، دون أن تخبر فاروق حتى لا تثير قلقه عليها أو على الطفل القادم.. واختارت الدكتور مشهور فراج، صديق الأسرة الصغيرة المكونة من اثنين فقط، وثالث في الطريق.

قال الدكتور مشهور:

ـ لم أكن بارعًا في تفسير أعراضها الجسمانية، لكني ساعدتها بقدر ما استطعت.. صحبتها لعمل الأشعة، وزكيت لها طبيبًا صديقًا متخصصًا، عندما اكتشفنا أن التشخيص وبكل أسف وألم هو: ورم في المخ.

قال عمي ممدوح:

ـ أخفت سعاد الأمر عن فاروق حتى وضعت حملها الأول.. صبي جميل أطلقوا عليه اسم «سامر».

قال الدكتور مشهور:

ـ لقد ولد بعيب خِلقي في القناة العصبية.. فوضِع في حضانة خاصة، وتمت رعايته بكل السبل المتاحة حتى بلغت حالته درجة حرجة.. مما جعل فاروق يقرر أن يجرب تقنية جراحية جديدة عليه في سبيل إنقاذه.. لكن الوليد توفِّي في غرفة العمليات قبل

حتى أن تنتهي الجراحة.. وتضاعفت المأساة بعدها بمرض سعاد النفسي إلى جوار مرضها العضوي الذي استمر يلتهم مخها وجسدها بلا رحمة.. فقد شعرت بأنها أورثت الجنين خلايا مرضها وجيناته المعطوبة.. وأنها لو لم تكن مريضة لما ولد الجنين مريضًا.. كان إحساسًا ضلاليًّا عميقًا بالذنب بدأت بعده وبسببه في أخذ جلسات علاجية في عيادتي.

قال عمي ممدوح:

ـ على الجانب الآخر نشرت ألفت همام، صديقة سعاد، تحقيقًا في قسم الحوادث بالمجلة تحت عنوان مثير للغاية: «طبيب يقتل ابنه الرضيع في غرفة العمليات». وقد أحضرت لفاروق نسخة المجلة في أثناء ذهاب سعاد لأخذ جلسة علاجية من الجلسات الأولى لدى الدكتور مشهور.. وعلمت بعدها أن ألفت قد ذهبت لتعتذر له في العيادة لكنه قابلها بعنف.. وفي خضم هذه الأحداث، ظل خبر مرض سعاد الأصلي خفيًّا على فاروق.

وتابع عمي ممدوح:

ـ استمرت الحياة أيامًا تلو أخرى.. أراد فاروق أن تقطع ألفت علاقتها بالأسرة، لكنه لم يخبر سعاد بهذا؛ حرصًا على حالتها النفسية، ووافق على استمرار علاقتهما كصديقتين على مضض.. أخفى هو عنها سر التحقيق المنشور، وأخفت هي عنه سر مرضها الخبيث، إذ كان كلاهما يخشى على الآخر عواقب المعرفة، وبشاعة الحقيقة.

قال الدكتور مشهور:

ـ وحملت سعاد ثانيةً.. ومع هذا الحمل كانت حالتها النفسية تسوء لإحساسها المرضي بالخوف من تكرار المأساة، كما كانت حالتها الجسمانية في تدهور مستمر تحت تأثير الورم المتنامي في شراسة.. أذكر أن فاروق قد أخبرني أنها كانت تصرخ في هستيريا داخل غرفة الولادة في المرَّة الثانية إلى حد أنها اتهمته بمحاولة قتلها.. كانت لا تعي شيئًا مما تقول نتيجة للضغط الرهيب الذي تتعرض له يوميًّا.

قال عمي ممدوح:

ـ وأتيت أنتِ يا نسرين.. طفلة فاتنة ومكتملة النضارة والحيوية والصحة.. جئتِ وملأت الدنيا من حولنا بهجة وصراخًا محببًا.. أحس فاروق أن الدنيا قد ابتسمت أخيرًا، على حين بدأت سعاد تستشعر أن نهايتها قد أصبحت أقرب إليها من حبل الوريد.

قال الدكتور مشهور:

ـ الحقيقة أنها كانت تشعر بهذا من قبل الولادة، وكانت قد وضعت في ذهنها خطة ظنت أنها مُحكمة لكي تقرب بين فاروق، وألفت! لم تصارح سواي وعمك بهذا السر، وكنت أنا أرفض الفكرة لأني أعرف أن فاروق لن يستجيب أبدًا لهذا الأمر، وأخبرني هو أن عمك رافض لها أيضًا.

قال عمي ممدوح:

ـ كانت حجتها أنها لا تريد تركك دون أم، وأن ألفت هي خير من تثق به للقيام بهذا الدور، لم أكن قد صالحت نفسي بشأن ما فعلته ألفت معها عندما ضربت بصداقتها عرض الحائط في

سبيل نصر صحفي، لكني لم أكن أستطيع مصارحتها بهذا الأمر احترامًا لرغبة أخي وخوفًا عليها من الصدمة.. كانت تريد السعادة للجميع، لك ولفاروق ولألفت، وإن كنت لا أدري هل تعرف الأخيرة بهذه الخطة أم لا ما أستطيع ضمانه لك أن فاروق لم يكن يعلم.

وتابع عمي ممدوح بعد هنيهة صمت:

ـ ثم ماتت فجأة.. أتاني الخبر في الإسماعيلية فأتيت مهرولًا وعلمت بعد أن مرت الأحزان أن فاروق قد دخل عليها الغرفة فوجدها ساقطة على الأرض أمام المرآة فاقدة للحياة، بينما كنتِ أنتِ على السرير تصرخين وكأنك قد أدركت بسنك التي لم تتجاوز شهورًا معدودة حجم المصيبة.

قال الدكتور مشهور:

ـ كان فقدها عصيبًا علينا جميعًا.. وقد اكتشف فاروق من خلال أوراق التحاليل والتقارير الطبية ـ فيما بعد ـ أمر الورم الذي كانت تعاني منه، والذي تسبب في اقتراب نهايتها على هذا النحو.. وعلم أنني أعلم.. فاعتكف وحده في غرفة نومه طويلًا، وتناول أطنانًا من مضادات الاكتئاب، قبل أن يخرج إلى الدنيا من جديد ويدفن نفسه في دوامة العمل والمرضى والمستشفى منذ أيامها.. كأنه يعاقب نفسه هو الآخر على ذنب لم يقترفه.. ومنذ حينها وعلاقتي به لم تعد كما كانت.. لم نعد أكثر من زميلي عمل يلتقيان بالصدفة، بعد أن كنا صديقين حميمين.. كأنه يعاقبني أنا الآخر على جرم إخفائي خبر مرضها عنه.

ثم تابع الدكتور مشهور:

ـ لكن الحقيقة كانت ببساطة أنه ورم لا علاج له.. وأن قضاء الله نفذ على الرغم من أنوفنا جميعًا!

قال عمي ممدوح:

ـ هذه هي القصة يا نسرين.. بكل تفاصيلها المؤلمة!

* * *

(الزمن يا صغيرتي هو اسم اللعبة.. الرهيبة!)

(أنتما أكبر تراجيديا رأيتها وعشتها في حياتي يا سيدتي.. أعني أنتِ وفاروق بالطبع!)

(كثيرًا ما يضلل العقل صاحبه!)

* * *

الصمت إلا من الأنفاس اللاهثة مجددًا..

دام طويلًا جدًّا هذه المرَّة.

هشام، أطرق ناظرًا إلى الأرض وقد صدمه ما يسمع إلى الحد الذي ألجم لسانه المنطلق دومًا عن الحديث.

سامي، احتفظ ببسمته الهادئة وملامحه التي تظهر التعاطف في غير إفراط.

عمي ممدوح والدكتور مشهور، تبادلا النظرات ذات المعنى الخفي، وإن لاحت في العيون نظرات مستريحة من هموم السنين البعيدة.

كم كنت محقًّا يا دكتور مشهور.. أي تراجيديا نحن!

ـ رباه.. أهذا ما حدث؟!

استطعت أن أغمغم بها في النهاية بعد جهد جهيد، ثم نظرت إلى الدكتور مشهور أسأله:

ـ وما علاقة «إخوة الدم» بكل هذا إذن؟!

تنهد الدكتور مشهور، جرع من كوب الماء الموضوع على الطاولة المجاورة لسريري حتى يبتل ريقه، ثم قال:

ـ لقد تحدثنا عن الماضي.. ويأتي الآن دور الحاضر.

ونظر نحو هشام متابعًا:

ـ من وجهة نظر الطب النفسي فالأمر لا يبتعد كثيرًا عما أطلق عليه الرائد هشام مصطلح «الجنون»، وإن كان ليس مصطلحًا علميًّا بما يكفي.

قلت مجارية إياه في دعابته التي لم تضحكني:

ـ تعني أنني قد جُننت يا دكتور؟

ابتسم ليوضح أنه كان يمزح، ثم استطرد قائلًا:

ـ ما حدث ليس إلا حالة فريدة امتزجت فيها الهلاوس بالأوهام بالضلالات، على المستويات البصرية والسمعية والإدراكية وربما الشمية والحسية أيضًا.. ولكي نفرق مبدئيًّا بين المصطلحات، فإن الهلوسة هي إدراك حسي دون وجود منبه خارجي، مع رسوخ الاعتقاد بوجود هذا المنبه.. والتوهم هو الإدراك الخاطئ لهذا المؤثر الخارجي كلعبة يلعبها العقل لتفسير المؤثرات تفسيرًا غير صحيح.. هناك مثال شهير للتفرقة بينهما يتمثل في الحبل.. عندما أرى الحبل ثعبانًا فهذا توهم أو خداع بصري، أما لو رأيت ثعبانًا دون وجود حبل، فهذه هي الهلوسة..

تبقى الضلالات وهي سيطرة أفكار خاطئة على المرء، وينبع منها الوسواس القهري، وضلالات العظمة، والشعور بالذنب... إلى آخره. ربما تكونين في مرحلة مبكرة من مراحل الفصام، وربما لا يعدو الأمر مجرد تجربة اضطراب نفسي عابرة لكنها شديدة الخصوصية.

التقط الدكتور أنفاسه ثم عاد يستطرد:

ـ لقد تهيأ لك الجو النفسي عندما استخدمت حاجيات أمك الخاصة أمام المرآة وجرحت إبهامك ثم سقطت غائبة عن الوعي.. في هذه اللحظة بالذات انفتحت أبواب اللاوعي الكامن في أعماق عقلك الباطن، فنهضت دون إدراك منك، وغيَّرت ملابسك، ورتبت الحجرة، وأعدت كل شيء كما كان.. ثم نمت بهدوء على سريرك لتستيقظي صباحًا وتجدي أن كل شيء قد تغير على نحو غير مبرر.. بعدها بدأ نمط سلوكك يتغير نتيجة للدوافع النفسية التي ولدها الموقف، وبدأتِ في ربط كل شيء بمصير أمك الذي لا تعرفين عنه شيئًا.. ثم بدأت مرحلة الهلاوس والأوهام والضلالات، على هيئة استعادة دقيقة لمواقف وذكريات لم تعايشيها، واسترجاعها من منطقة «الأميجدالا» أو «القشرة اللوزية» الواقعة على جانبي المخ في اتجاه طرفي الجمجمة.. هناك أبحاث كثيرة في هذا الصدد نُشرت مؤخرًا لا مجال الآن لسرد نتائجها عليك، لكن وبهذا الشكل المبسط وجدت نفسك تعودين إلى الماضي على شكل الروح الهائمة الشفافة التي تتحدثين عنها، وأصبحت ترين

الجرح الذي في إبهامك اليسرى على كل من تيسر لك رؤيتهم مؤخرًا، بالذات من يعيشون دون ذويهم مثلك.. وامتزج كل هذا لديك بخوفك القديم من كيان مرعب مثل «قصر البارون».. في الغالب لم تزرك جارتك من الأصل، ولم تذهب معك إلى القصر، ولم يكن هناك احتفال ولا إخوة، كل ما حدث قد حدث وأنتِ جالسة على المقعد الهزاز في الصالة.. داخل عقلك فقط كما أخبرتك أمك بعد أن رأيتها في نفس المكان.. وفي الإسماعيلية داهمتك نوبة أخرى على هيئة اتصال هاتفي عجيب من شخص غير معروف تسمينه الظل.. هذه النوبة دفعتك لزيارة القصر فعلًا هذه المرَّة حيث وجدناك، وحيث رأيت كل من تعرفينهم في هذه الدنيا كإخوة لك في الدم.. ربما حدث لك هذا تلقائيًّا هناك، وربما كان هناك مَن ينتظرك بالفعل ليهيئ لك الجو الوهمي الذي رأيته عن طريق ضربة في الرأس أو غاز مخدر مثلًا.. وهكذا تمثلت لك الأم على هيئة الروح الحارسة التي تريد إرشادك نحو الحقيقة، والحقيقة أن هذا كله لم يحدث إلا في عالم خاص داخل عقلك أنتِ يا فتاة!

صمت الدكتور وقد انتهى من تفسيره الوافي، وقال عمي ممدوح في إعجاب:

ـ تحليل منطقي للغاية يا دكتور.

التفت الدكتور إلى سامي الجالس مبتسمًا ليسأله:

ـ أهذا رأيك أنت الآخر يا سيد سامي؟

لم يرد السيد سامي، ونظر إليَّ قائلًا بصوته الهادئ النعسان:

ـ افعلي ما أطلبه منك إذا أذنتِ يا آنسة نسرين.
نظرت إليه.
ـ ارفعي يدك اليمنى.
فعلت.
ـ أغمضي عينيك.
أغمضت.
ـ خذي نفسًا عمييييقًا.
أخذت.
وكان هو يفعل ما أفعله أنا بنفس الترتيب.
ـ إن تيار طاقتك الروحية يسري الآن عبر الأثير من يدك إلى يدي.
ـ يا للهراء!
سمعت مَن يهمس بها، لكن صوت قائلها اختلط عليَّ فلم أعرف إن كان هشام أم عمي أم الدكتور.
وفتحت عيني، لأجد سامي قد فتحها هو الآخر، وحدق فيَّ قائلًا:
ـ ربما لا أملك لسانًا لبقًا كلسان الدكتور مشهور، ولا أقدر على نظم حديث منمق متسق كحديثه.. لكن كل ما أستطيع قوله هو التهنئة.. أنتِ تملكين طاقة روحية من نوع خاص جدًّا يا آنستي.. نوع نادر ولا نلقاه كثيرًا.. لا يتمتع به إلا ذوو الحظوة والموهبة العميقة الجديرة بمهام عظيمة وفذة.. صدقيني لو قلت لكِ إنك تصلحين وسيطة روحية ذات حضور طاغ، كل ما تحتاجين إليه هو بعض التدريب الروحي لاستكشاف مجاهل نفسك أكثر وأكثر.

قال هشام في سخرية:

ـ سيكون الأمر ذا نفع مهول لكِ في عالم الصحافة!

والتقط الدكتور منه خيط السخرية ليقول بلهجة ذات مغزى واضح:

ـ ولِمَ الصحافة وقتها يا بني؟ إن أصحاب هذه المهن يكسبون كثيرًا!

والتفت إلى سامي مرَّة أخرى ليردف سائلًا:

ـ أليس كذلك يا سيد سامي؟

لا أدري إن كان سامي قد فطن لما في العبارة من تعريض، لكنه قال دون أن تنمحي ابتسامته العريضة:

ـ من حقها أن تعرف جدوى مواهبها يا دكتور!

سأل عمي ممدوح ببراءة:

ـ هل حقًّا يمكن للمرء أن يستفيد من أمر كهذا؟

قال سامي:

ـ جرب وستعرف بنفسك.

قال هشام في حدته المعهودة:

ـ أنا لا أراها إلا محض دجل وشعوذة!

قال سامي ناظرًا إليه:

ـ هذا رأيك الخاص يا سيدي.

تعالت نبرة الدكتور مشهور الجهورية وهو يقول:

ـ يا سيد تيمور..

ولم أسمع أنا بقية ما دار من الحوار.

لم أكن مهتمة، ولم يكن في عقلي مساحة شاغرة لترف كهذا..
لقد اغتسلت في بحيرة الحقيقة أخيرًا.
وعرفت كل شيء.
نظرت إلى النور الذي يشع من خلف الخصاص.
ورأيت وجه سعاد المضيء يبتسم لي في حنان وأمومة.
وبجوارها رأيت الوجه الغارق في الظل.
وابتسمت له أنا في امتنان شديد.

٢٦

وحدي كالمعتاد.

جالسة في الشرفة أراقب الشمس المائلة عند حافة الغروب البعيدة، ليس معي إلا قدح النسكافيه الخالد، وألبوم الصور القديمة، ونبرات عبد الحليم الحزينة الحالمة.

كُل كلمة حُب حلوة قُلتهالي

كُل همسة شوق بشوق سمَّعتهالي

تجربة لم أتصور أنني سأخوضها في يوم من الأيام.

تجربة كشفت لي الكثير مما لم أكن أتصور حدوثه بالنسبة لأقرب أقربائي.

أبي.. وأمي.

والحنان والعطف والقلب الحِنيِّن

والأماني كُلها نوِّلتهالي

ربما لا نتصور جميعًا أن في حياتنا مكانًا تختبئ فيه كل هذه الأسرار.

ربما نسمع قصص الآخرين، ونمصمص شفاهنا شفقة وحزنًا

وتعاطفًا، دون أن يخطر ببالنا للحظة أن قصة أكثر إثارة تكمن تحت جلودنا نحن، في انتظار أن تصحو في وقت لم يحن بعد.

ربما لهذا نحب سماع قصص الآخرين، ومشاهدة تراجيديات السينما، وقراءة رومانسيات الأدب المفجع، كنوع من التطهر وإبعاد الشبهة عن الذات.

ربما...

الليالي مِنورة وأيام هنية
شُفت ويَّاك الهَنا شُفته بعينيَّ

لكن الحياة أقوى من كل شيء.

وها هو تيارها يجرف في طريقه كل الأحزان والأفراح والذكريات، ويستمر في طريقه الأبدي المحفور منذ نزل آدم على الأرض، وحتى مصبه في بحر النهاية.

عاد أبي من سفره، ولم يجل بباله للحظة أنني قد عرفت شيئًا عن الماضي البعيد الذي ما زال يحارب لنسيانه بالعمل.. وبإهمالي!

شُفت جنة بالمحبة منوَّرلنا
وانت جنبي زي قلبي تخاف عليَّ

السيدة ألفت عادت من سفرها، واستقبلتني بالترحاب في مكتبها عندما دخلت حاملة تحقيقات ومحاولات صحفية جديدة.

لقد نسيت موقفي المخزي معها في خضم مشاغلها، وبسماحة تُحسد عليها.

هل أخطأت بنشر خبر وفاة أخي؟ هل أخطأت بنشره في هذا القالب؟

لم أعد أشغل بالي بأمور حدثت منذ أكثر من عشرين عامًا.

والمودة والكلام الحلو بِينا

يا حبيبي ضِحكة رايحة وفرحة جاية

عمي ممدوح عاد ينغمس في عمله وتربية حمادة في الإسماعيلية، وما زلت أمني نفسي بزيارته، لكنها حياة العاصمة التي لا ترحم.

ألن يتزوج هذا الرجل؟

يا حبيبي عِشت أجمل عُمر في عينيك الجميلة

عشت أجمل عُمر

أوصل الأيام مع الأحلام بِغنوة شُوق طويلة

للرِّموش السُّمر

الدكتور مشهور لم أره بعدها.

سامي تيمور حادثني هاتفيًّا أكثر من مرَّة ليقنعني بجدوى العمل كوسيطة روحية، لكني حاولت إقناعه بأنني لن أصلح.

ولن أقتنع!

بدأ ييأس أخيرًا، لكنه ما زال يتصل بي من آن لآن.

يا حبيبي كفاية أحبَّك

وارتوي من عطف قلبك

عدت إلى المذاكرة والكلية والاستعداد للامتحانات، وبدأت أستعيد توازني النفسي، فلم أعد أرى أمي إلا في ثنايا الألبوم ذي الغلاف الأخضر الصلب.. العتيق.

وانسى بُكره.. وانسى بعدُه

وافتكر بس اني جَنبك

نهى ما زالت في الغالب تحاول تحضير روح أمها، ربما حملتها عربة «العباسية للصحة النفسية» قريبًا لتقيم بين جدرانها بصفة مستديمة.

صلاح ما زال يسهر ويواظب على الإدمان والفشل، ذكروني أن أتصل بذويه المسافرين في أقرب مناسبة.

أما جميلة فقد عدت أراها في الكلية بنفس غموضها وتحفظها المريب.

لم يبقَ إلا هشام.. لقد عُدنا نتشاجر ونتصالح كما يفعل أي خطيبين يعرفان جيدًا ما يفعلانه!

الليالي تِعمل ايه فينا الليالي
حُبنا أكبر وأكبر من الليالي
يا حبيبي

لأكتفي بهذا القدر من الذكريات اليوم.. ورائي كم رهيب من الدروس التي تنتظر مَن يذاكرها.. أسابيع قليلة وتبدأ امتحانات السنة النهائية الحاسمة.

سأغلق الألبوم وأعد فنجانًا آخر من النسكافيه (لزوم سهر الليالي في طلب العلا) وأصحب حليم معي إلى غرفتي.

سأبدأ اليوم في مذاكرة مادة «الـ.....».

«إن الإخوَة موجودون في كل مكان منذ الأزل، وسيظلون حتى نهاية الأزل، لكنكِ لن تستطيعي رؤيتهم - برغم وجودهم الدائم من حولك - ما لم تكوني منهم، ومنهم الآن أنتِ!».

تكتشف نسرين الجبالي في منزل أبيها صندوقين قديمين مليئين بأغراض أمها التي ماتت ونسرين ما زالت طفلة. وفيما هي تُخرج فستانًا من أحد الصندوقين لتجربه، تجرح إبهامها اليسرى بمشبك شعر.

في اليوم التالي، تلاحظ نسرين تغييرات غريبة تعتريها، في طريقة كلامها وتصرفاتها، بل واهتماماتها. كما تلاحظ أنها لا تنفرد بجرح الإبهام اليسرى، بل إن جميلة، زميلتها في الكلية، وجارها صلاح، وجارتها نهى، لديهم أيضًا جرحًا ملتئمًا في المكان نفسه، كأنه علامة مشتركة.

تخبرها نهى بالحقيقة: لقد اختار الدم نسرين لتصبح أختًا جديدة في رابطة «أخوّة الدم»، وهي رابطة أقوى وأكثر تماسكًا من علاقات النسب. ومن خلال طقوس «الأخوّة» تتكشف لنسرين أسرار عائلية مزلزلة.. فهل ستستطيع مواجهتها والتصالح معها؟

محمد سليمان عبد المالك من أبرز كُتاب الشباب في مصر. تخرَّج في كلية الطب البشري، ولكنه قرر اعتزال الطب تمامًا بعد عدة سنوات ليتفرغ للكتابة. نشرت له المؤسسة العربية الحديثة عديدًا من الروايات، كما كتب في المسرح والصحافة الفنية والسياسية وقصص الأطفال المصورة. عبد المالك يكتب أيضًا الأفلام والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، منها «عزبة آدم» و«القطة العميا» و«باب الخلق»، وعُرض له أخيرًا مسلسل «اسم مؤقت» الذي لاقى نجاحًا كبيرًا.

9 789776 467019

الكرمة